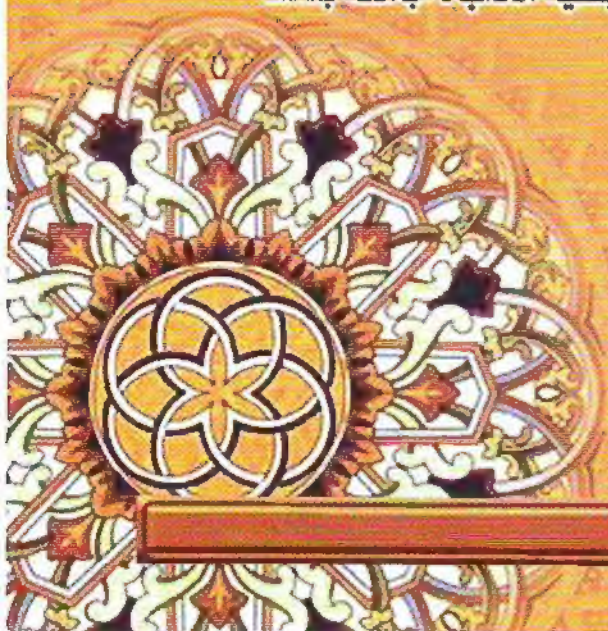




بلاغتُ الكلمة في التعبير الفرائدي

تأليف
الأستاذ الدكتور
فاضل صالح السامرائي
أستاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد



بَلَاغَةُ الْكَلِمَةِ فِي النَّحْوِ الْفُرَاقِي

تأليف
الأستاذ الدكتور
فاهد صالح السَّامَرِي
أستاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد

شركة العاتك لصناعة الكتاب
القاهرة - ت ٥١٢٤٤٧٥٠

بيانات الكتاب

عنوان الكتاب: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني

اسم المؤلف: الأستاذ الدكتور: فاضل صالح السامرائي

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٠٧٦٦

تطلب كافة منشوراتنا

بغداد - مكتبة النهضة - شارع المتنبي

بغداد - مكتبة أنوار دجلة - شارع المتنبي

بغداد - المكتبة القانونية - شارع المتنبي

شركة

العاتك لصناعة الكتاب

للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة

بلاغة الكلمة

في التعبير القرآني

الأستاذ الدكتور

فاضل صالح السامرائي

كافة الحقوق

محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى - بغداد

الطبعة الثانية - القاهرة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

طبعة خاصة بالعراق

١١ أ درب الأتراك - خلف جامع الأزهر

ت ٥١٢٤٤٧٥ - جوال ٠١٠٤٨٨٧٦٤٤



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله إمام الهدى محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

هذا كتاب يبحث في المفردة في القرآن الكريم، والمقصود بـ (المفردة) هو الكلمة الواحدة - كما هو معلوم -

إن موضوع المفردة في القرآن موضوع واسع متشعب الأطراف متعدد المناحي غير أني أثرت أن أبحث باختصار أموراً أراها ذات أهمية خاصة فيما أحسب وإن كان التعبير القرآني كله مهماً. وهذه الأهمية تعود إلى أكثر من سبب:

منها أن قسماً مما بحثته في هذا الكتاب لم أجد المعنيين بدراسة بلاغة القرآن والمعنيين بدراسة المتشابه قد أشاروا إليه فيما وقع بين يدي من المصادر وإن كان لا يبعد أن يكون مطروقا في الأسفار التي لم يسعنا الحظ في الوصول إليها وما أكثرها! وذلك نحو كثير من أحوال الذكر والحذف في المفردة نحو (تَنَزَّلُ) و (تَنْزِلُ) و (تَوَفَّاهُمْ) و (تَتَوَفَّاهُمْ) و (نَبِغْ) و (نَبِغِي) وغيرها وذلك كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ وقوله: ﴿قَالُوا يَا أَبَتَانَا مَا نَبِغِي﴾.

ونحو كثير من أحوال الإبدال في المفردة نحو: (يَضْرَعُونَ) و (يَبْضُرَعُونَ) و (يَذْكُرُونَ) و (يَنْذَكُرُونَ) و (اطِيرْنَا) و (تَطِيرْنَا) وكاستعمال (اللاتي) و (اللاتي) وغيرها، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطِيرُنَا بِكُمْ﴾ وقوله: ﴿قَالُوا اطِيرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ﴾. ولا شك أن كل مفردة وضعت وضعا فنياً مقصوداً في مكانها المناسب، وإن الحذف من المفردة مقصود، كما أن الذكر مقصود، وإن الإبدال مقصود، كما أن الأصل مقصود، وكل تغيير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه، كما سنبين ذلك ما وسعنا البيان.

والسبب الآخر الذي دعاني إلى تناول هذه المباحث هو أن قسماً مما بحثته قد طرقه المباحثون قبلي، وحاولوا أن يتلمسوا الفروق بين استخدام المفردات، غير أنني لم أقتنع بقسم من هذه التعليقات، ورأيت أن كثيراً منها متكلف، فحاولت أن أعللها تعليلاً آخر وجدته أشفى لنفسى وأكثر إقناعاً، وأنا لا أزعم أنني أتيت بأحسن مما ذكروه، وأن توجيهي أصوب مما ذهبوا إليه، ولكنى أذكر ما وجدته في نفسى، وهذا نحو توجيهه (فعل) و (وأفعل) بمعنى نحو (نزل) و (أنزل) و (نجى) و (أنجى)، كقوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وقوله: ﴿فَنَجِّنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ﴾ وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ﴾.

وكاستعمال الأفراد والتثنية والجمع كالنخل والنخيل. وتعاور المفردات كالعاكفين والقائمين في قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وما إلى ذلك.

ثم إن هناك أمراً آخر دعاني إلى تناول مثل هذه الأبحاث، وهو أنني لم أجد في شأن المفردة في القرآن الكريم وتعليل استعمالاتها كتباً مختصة في حدود ما اطلعت عليه.

نعم هناك في كتب التفسير وكتب المتشابه وغيرها إشارات إلى سبب اختيار هذه اللفظة في هذا الموضوع دون غيرها من المتشابه، كاختيار (تخرصون) في قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ واختيار (يظنون) في قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أو استعمال (القسط) في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ واستعمال (الحق) في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾.

كما أن هناك كتباً في مفردات غريب القرآن قد تذكر الفرق بين لفظة وأخرى، كالفرق بين جاء وأتى، والفرق بين الصراط والطريق والسبيل، والفرق بين (يفعلون) و (يعملون) و (يصنعون) وهو أشبه بما يكتب في الفروق اللغوية، غير أني لم أر كتاباً يبحث في المفردة في القرآن ويؤوبها على الموضوعات ويجمع ما تشابه من ذلك ويدرسه، فحاولت أن أضع بداية متواضعة في هذا الموضوع فقلعه يأتي مَنْ يتم هذا العمل ويتوسع فيه.

وقد ترى أني لم أبحث في هذا الكتاب موضوعات كان من المتوقع أن أبحثها، كالإدغام والفك، نحو (مَنْ يَرْتَدَّ) و (مَنْ يَرْتَدِّد)، والفروق اللغوية، كالخوف والخشية والسُّح والبخل والصراط والسبيل، والاختلاف بين المصادر ونحوها فأقول: لقد حاولت أن أتجنب كثيراً مما بحثته في كتبى السابقة قدر الإمكان كموضوع الإدغام والفك الذي ترددت آياته في أكثر من موضوع في كتاب (التعبير القرآني) وكتاب (الجملة العربية) ونحو كثير من معاني الأبنية كالمصادر والجموع وغيرها مما بحثته في (كتاب الأبنية في العربية).

أما الموضوعات الأخرى التي لم أبحثها، فإن الكلام فيها يتسع اتساعاً كبيراً، فلعن الله يبسر لنا أن نكتب فيها شيئاً في قابل الأيام.

وهناك أمر مهم جدير بأن أنبه عليه وما كانت لأذكره لولا أني رأيت جملة من حَمَلَة العلم أشاروا إليه.

وذلك أنى في أثناء إلقاء محاضرات من هذا الموضوع على جماعة من أهل العلم وعلى طلبة الدكتوراه وفي مواقف أخرى طرح سؤال، وهو أن هذه التعليقات قد تكون مقبولة بموجب الرسم القرآني الذي بين أيدينا، فكيف يكون التعليق إذا كان الرسم مختلفاً على قراءات أخرى؟

فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ لقد عللنا فيه سبب التعبير بـ (نهر) دون الجمع^(١)، فكيف إذا كانت هناك قراءة أخرى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ﴾؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فكيف إذا كانت هناك قراءة أخرى (تتوفاهم)؟

وقوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ بحذف الياء، فكيف إذا كانت هناك قراءة بإثبات الياء، أى ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي﴾؟

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ فكيف إذا كانت هناك قراءة بلا إبدال، ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكَ﴾؟

وكاستعمال اللاتى واللاتى، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَهَاتِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاللَّائِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ﴾.

وما إلى ذلك.

والجواب: أن أركان القراءة الصحيحة - كما هو مقرر - ثلاثة:

١- صحة السند.

٢- موافقة خط المصحف العثماني.

(١) انظر كتابنا (المسائل الفنية في نصوص من التنزيل).

٣- موافقة العربية.

ومتى اختلّ ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عن العشرة، أم عن هو أكبر منهم. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف^(١).

فموافقة رسم المصحف العثماني شرط من شروط القراءة الصحيحة، ومتى اختل هذا الشرط فخالفت القراءة رسم المصحف دخلت في الضعف أو الشذوذ أو البطلان.

وبهذا يزول الإشكال فإن كل قراءة تخالف رسم المصحف لا تدخل في الصحيح.

وبهذا يتضح أن ليست هناك قراءة صحيحة (إن المتقين في جنات وأنهار) فإن كلمة (أنهار) تخالف رسم المصحف.

وكذلك ما ورد من (تَوْفَاهُمْ) و (تَتَوْفَاهُمْ)، فإن (تَوْفَاهُمْ) تكتب بتاء واحدة

و(تَتَوْفَاهُمْ) تكتب بتائين، فلا تكون إحداهما مكان الأخرى، لأن ذلك مخالف لرسم المصحف.

وكذلك قوله: «ما كنا نبغ» فإنه ليست هناك قراءة معتمدة بإثبات الياء، لأنها رسمت في المصحف بلا ياء.

ونحو قوله: «اطَّيَّرْنَا» فإنه لا يصح أن تُقرأ في الموضع نفسه (تَطَيَّرْنَا) لأنها مخالفة لرسم المصحف.

ونحو اللَّائِي وَاللَّائِي فانهما في الرسم العثماني مختلفتان.
فاللَّائِي ترسم بلا صورة للهمزة (الْي).

أما اللاتي فترسم فيها للتاء صورة (التّي).

وكذلك سائر ما ذكرناه فإنه لا يصح أن يقرأ بما يخالف رسم المصحف

فسقطت هذه الشبهة أصلاً.

وأود أن أذكر في الختام أمراً تجد الإشارة إليه، وهو أنني حاولت أن أعتمد

في التوجيه والترجيح على الأمور اللغوية المسئمة والقواعد المقررة — على قدر

علمنا التواضع — والاستعانة بالسياق لتلمس الفروق في الاستعمال وهو مهم جداً في

الدلالة على سبب الاختيار، لنلا نزل بنا القدم وتذهب بنا بنيات الطريق.

نسأل الله أن يلهمنا الرشد ويهدينا الطراط المستقيم

إنه سميع مجيب



الذكر والحذف

قد يحذف في التعبير القرآني من الكلمة نحو (استطاعوا) و (استطاعوا)، و (تتنزل)، و (تنزل)، و (تتوفاهم)، و (توفاهم)، و (لم يكن)، و (لم يك)، وما إلى ذلك، وكل ذلك لغرض وليس اعتباطاً، فالتعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل كلمة، بل كل حرف إنما وضع لقصد، كما ذكرنا في كتابنا (التعبير القرآني).

أن القرآن يحذف من الكلمة لغرض ولا يفعل ذلك إلا لغرض، ومن ذلك على سبيل المثال:

١- أنه يحذف من الفعل للدلالة على أن الحدث أقل مما لم يحذف منه، وإن زمنه أقصر ونحو ذلك، فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحدث. أو يحذف منه في مقام الإيجاز والاختصار بخلاف مقام الإطالة والتفصيل، فإذا كان المقام مقام إيجاز أوجز في ذكر الفعل فاقتطع منه، وإذا كان في مقام التفصيل لم يقتطع من الفعل، بل ذكره بأوفى صورة. ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه في (التعبير القرآني)، وفي (معاني النحو)، من نحو قوله تعالى: (لم يكن)، و (لم يك)، وغيرهما، فلا نعيد القول فيه^(١).

ونحو قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] وذلك في السد الذي صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنحاس المذاب، وقد ذكرنا أن الصعود على هذا السد أيسر من إحداث نقب فيه لمرور الجيش، فحذف من الحدث الخفيف، فقال: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ بخلاف الفعل الشاق الطويل، فإنه لم يحذف، بل أعطاه أطول صيغة له، فقال: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ فخفف بالحذف من الفعل بخلاف الفعل الشاق الطويل.

(١) انظر التعبير القرآني، ٧٢ وما بعدها، معاني النحو ٢٤٨/١ وما بعدها.

ثم إنه لما كان الصعود على السد يتطلب زمناً أقصر من إحداث النقب فيه حذف من الفعل وقصّر منه ليجانس النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث. ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]

وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]

فقال في هذه الآيات (تنزل) في حين قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]

فقال في آيتي القدر والشعراء (تنزل) بحذف إحدى التائين، وقال في (فصلت) (تتنزل) من دون حذف، وذلك والله أعلم أن التنزل في آية (فصلت) أكثر مما في الآيتين الأخريين، ذلك أن المقصود بها أن الملائكة تنزل على المؤمنين عند الموت لتبشّرهم بالجنة^(١)، وهذا يحدث على مدار السنة في كل لحظة، ففي كل لحظة يموت مؤمن مستقيم فتتنزل عليه الملائكة لتبشّره بالجنة، فأعطى الفعل كل صيغته ولم يحذف منه شيئاً.

وأما آية الشعراء، فإن التنزل فيها أقل لأن الشياطين لا تنزل على كل الكفرة، وإنما تنزل على الكهنة أو على قسم منهم، وهم الموصوفون بقوله: ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ ولا شك أن هؤلاء ليسوا كثيراً في الناس وهم ليسوا بكثرة الأولين ولا شطرهم، بل هم قلة فاقطع من الحدث، فقال (تنزل) بحذف إحدى التائين.

وكذلك ما في آية سورة القدر، فإن تنزل الملائكة، إنما هو في ليلة واحدة في العام، وهي ليلة القدر، فهو أقل من التنزل الذي يحدث باستمرار على من يحضره الموت، فاقتطع من الحدث.

فأنت ترى أنه اقتطع من الفعل إحدى التائين في آيتي الشعراء وآية القدر، لأن التنزل أقل، ولم يحذف من آية فصلت، لأنه أكثر والله أعلم.
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

وقوله: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٧-٢٨].

فقال في آية النساء (توفاهم) بحذف إحدى التائين، وقال في سورة النحل (تتوفاهم) من دون حذف، ذلك أن المتوفين في سورة النساء هم جزء من الذين هم في النحل، فالذين في النحل هم الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين على وجه العموم

وأما الذين في النساء فهم المستضعفون منهم، فهم قسم منهم، فلما كان هؤلاء أقل حذف من الفعل إشارة إلى الاقتطاع من الحدث وإلى قلته بالنسبة إلى الآخرين، فقال في القسم الأكبر (تتوفاهم) وقال في القسم القليل (توفاهم) بحذف إحدى التائين، فناسب بين الفعل وكثرة الحدث.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَئِنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقوله: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا

أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ خُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]

فقال في آية الأحزاب (تبدل) بحذف إحدى البانين، وقال في آية النساء (ولا تتبدلوا)

من دون حذف، ذلك أن آية الأحزاب حكمها مقصور على الرسول ﷺ، فهو منهى

عن أن يتبدل بأزواجه أزواجه.

أما الآية الثانية فهي حكم عام للمسلمين على مر العصور، فقال في الحكم

المحدد والحدث المقصور على شخص واحد (تبدل) بالحذف من الفعل، وقال في

الحكم العام الممتد على مر العصور (تتبدلوا) فجاء بالصيغة القصيرة للحدث القصير.

وبالصيغة الطويلة للحدث الطويل الممتد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ

إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا

حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ

أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُقْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٥].

وقوله: ﴿أَشْرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَىٰ

الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ وَمَا

تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُسَمًّى لَّفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ﴾

[الشورى: ١٣-١٤].

فقال في آية آل عمران (ولا تفرقوا) بحذف إحدى التانين، وقال في آية الشورى (ولا تتفرقوا) وذلك لأكثر من سبب منها:

١- أن آية آل عمران خطاب للأمة الإسلامية، وأما آية الشورى فالكلام فيها على أمم مختلفة وشرائع متعددة ذكر منها شريعة نوح وشريعة سيدنا محمد وإبراهيم وموسى وعيسى، فلما كانت هذه في أمم متطاوله على مدى التاريخ جاء بالصيغة التي هي أطول، ولما كانت الآية الأولى في أمة واحدة وهي أمة محمد وهي جزء من الأمم المذكورة في الشورى، جاء بجزء من الفعل ولم يأت به كله.

٢- أنه نهى الأمة الإسلامية عن أى شيء من التفرق مهما كان قليلاً أو جزئياً وحرر من ذلك فقال (ولا تفرقوا) فاقتطع من الفعل للدلالة على النهى عن أى شيء من التفرق مهما قل وضؤل.

ثم إن الملاحظ أن تحذير الأمة الإسلامية من التفرق ونهيها عنه أشد:

- ١- فقد خاطب المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أمراً وناهياً ومحذراً.
- ٢- ثم أمرهم بالوحدة والاعتصام بحبل الله، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾.
- ٣- ثم أكد ذلك بالحال المؤكدة، فقال (جميعاً) للدلالة على أن ذلك مطلوب من جميع أفراد الأمة بلا استثناء وأنه لا تُغني الكثرة الكاثرة من المتحدين المعتصمين، بل ينبغي أن يكون ذلك على سبيل العموم والاستغراق، فلا يشذ أحد منهم، ولا تُنجي الكثرة المعتصمة أو تحمي الفرد غير المعتصم من المحاسبة والعقوبة.
- ٤- لم يكتف بالأمر السابق، بل نهاهم بصريح العبارة إضافة إلى ذلك، فقال (ولا تفرقوا).

٥- التذكير بنعمة الله عليهم في التأليف بين قلوبهم.

٦- نهاهم عن أن يتشبهوا بمن تفرق واختلف، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾.

٧- توعدهم على ذلك بالعذاب العظيم.

٨- لقد أطلق العذاب ولم يقيد بزمان، فلم يقل (وأولئك لهم في الآخرة عذاب عظيم) كما قال في مكان آخر: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤] للدلالة على أن عذاب التفرق يطولهم في الدنيا والآخرة.

٩- ومن الملاحظ أنه جاء بـ(أن) التفسيرية في آية الشورى ولم يخاطبهم مخاطبة صريحة، فقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ في حين نهاهم نهياً مباشراً في آل عمران، فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ والكلام المباشر الصريح أهم وأكد من المفسر، فقوله: (قلت له: يا فلان افعل) أهم وأكد من قولك (أوصيته أن افعل).

وهناك ملاحظة أخرى في التعبير أنه جاء بالاسم الموصول (ما) في شرائع الأمم الأخرى، وجاء بـ(الذي) في شريعة سيدنا محمد، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ (مَا) وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ (وَمَا) وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى في حين قال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ذلك أن (الذي) أعرف من (ما) كما هو معلوم^(١).

فلما كانت شريعة سيدنا محمد أعرف من شرائع الأمم الأخرى لنا لأننا نعرفها كلها جاء بـ(الذي) ولما كانت شرائع الأمم الأخرى ليست بمنزلة شريعة سيدنا محمد، من حيث معرفتنا بها فإننا نعلم ما أعملنا به ربنا في القرآن الكريم، جاء بـ(ما) والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعْتُمْ تَأْتِيلَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]

وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُرْدِكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]

فقال في آية الأنفال (ولا تولوا) بحذف إحدى التائين، وقال في آية هود (ولا تتولوا) من دوف حذف، ذلك أن آية الأنفال خطاب المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأن آية هود هو خطاب للكافرين وهم قوم هود.

ومن المعلوم أن تولي المؤمنين أقل من تولي الكافرين، ذلك لأن المؤمنين مطيعون لله بخلاف الكفرة، فلما كان تولي المؤمنين أقل حذف من الحدث للدلالة على قلة توليهم بخلاف تولي الكافرين فإنه عام شامل فهو يشمل تولي المؤمنين وزيادة، فزاد في الفعل للدلالة على زيادة توليهم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه نهى المؤمنين عن التولي مهما كان قليلاً، فقال: (ولا تولوا) وهو نظير ما ذكرناه آنفاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْرُقُوا﴾.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

فقال: (تتولوا) بتائين ذلك أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا ممن تمكن الإيمان في قلوبهم وإن تخلفهم كان تخلف نفاق^(١) بدليل ما قبلها من الآيات، فقد قال تعالى فيهم:

١- يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم - ١١.

٢- بل ظنم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم - ١٢.

٣- وظننتم ظن السوء - ١٢.

٤- وكنتم قوماً بوراً - ١٢.

فجاء بالتولي تاماً.

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٨٩/٤.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمْوَهَا فَيَحْضِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخْلُوا أَصْنَعْتُكُمْ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعُونَ لِنُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦-٣٨]

فقال (تتولوا) بتائين، ذلك ان المقصود بالتولي هنا هو التولي عن الإيمان

والتقوى^(١)، فجاء بالتولي تاماً فلم يحذف من الفعل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا

خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]

فقال (تصدقوا) بحذف إحدى التائين والأصل (تتصدقوا) ذلك لأن هذه من

أحوال الصدقة النادرة وهو التصديق بدين المعسر فحذف لما لم يكن كالصدقة المعتادة لكونها أقل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَأَتَّبِعُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

[الكهف: ٧٨]

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]

بعدم الحذف من الفعل (تستطع) في الآية الأولى، وحذف التاء منه في الآية

الثانية، وذلك أن المقام في الآية الأولى مقام شرح وإيضاح وتبيين، فلم يحذف من الفعل.

وأما الآية الأخرى فهي في مقام مفارقة ولم يتكم بعدها بكلمة وفارقة، فحذف

من الفعل.

(١) انظر البحر المحيط ٨٦/٨ ، فتح القدير ٤١/٥ ، روح المعاني ٨٢/٢٦.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونَنِى فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]

وهذا كلام سيدنا إبراهيم مع قومه ومحاجته لهم وهم ناس عريقون فى الشرك وعبادة الأوثان، فهم محتاجون إلى التذكر وإدامة التفكير والتأمل ليهتدوا إلى التوحيد، كما فعل سيدنا إبراهيم وهو ينظر فى ملكوت السموات والأرض يبحث عن ربه وخالقه. فظنه الكوب بادیء ذى بدء، ثم ظنه القمر، ثم ظنه الشمس، حتى اهتدى إلى خالقه بعد التأمل والنظر والتفكير، وهذا الأمر ذكره ربنا قبل هذه الآية [الأنعام: ٧٥-٧٩] ثم انتهى إلى المحاجة مع قومه ﴿وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ...﴾ الآية.

فهذا مما يحتاج إلى طول تفكير وتفكير، فجاء بالفعل كاملاً لم يحذف منه شيئاً (أفلا تتذكرون) كما ناسب من ناحية أخرى مقام التفصيل والإطالة فيما حكى عن سيدنا إبراهيم واهتدائه إلى الحق من رؤية الكوكب فالقمر ثم الشمس، ثم انتهى إلى الحقيقة الكبرى حقيقة التوحيد.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]

وهذا مما لا يحتاج إلى طول تأمل أو تذكر أو تفكير، فإنك إذا سألت أى فرد من عقلاء خلق الله: هل يستوى رجل أعمى أصم ورجل بصير سميع؟ أو هل يستوى الأعمى والبصير والأصم والسميع؟ كان جوابه: كلا لا يستويان.

فحذف من الفعل للدلالة على أن هذا لا يحتاج إلى طول تذكر وتأمل. وقد تقول: ولكنه قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨]

فقال: (تتذكرون) بتائين، فما الفرق؟

والجواب أن الفرق واضح بين الآيتين، ذلك أن آية غافر هذه في الذين كفروا الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم وهؤلاء لا يرون أن المؤمنين أفضل منهم، بل على العكس من ذلك، فإنهم يرون أنفسهم أفضل من المؤمنين، فهم لا يقرّون بهذا القول إقرارهم بالآية السابقة، خصوصاً وأنه عبّر عن الكافر بالمسيء، جاء في (فتح القدير) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ﴾ "أى لا يستوى المحسن بالإيمان والعمل الصالح والمسيء بالكفر والمعاصي، وزيادة (لا) في (ولا المسيء) للتأكيد"^(١).

وجاء في (تفسير ابن كثير) في تفسير هذه الآية: "أى لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار (قليلاً ما تتذكرون) أى ما أقل ما يتذكر كثير من الناس"^(٢).

فهم يحتاجون إلى طول تذكر وتفكر ليعلموا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أفضل من الكافر وأن الكافر مسيء، فهذه هي أصل المسألة وعليها مدار الخلاف.

فالفرق واضح في الآيتين، فإن آية هو- ليس فيها خلاف ويستوى جميع عقلاء الخلق في إقرارها مؤمنهم وكافرهم من دون تفكير ولا طول تذكر، ولذا قال في آية هود: ﴿أَهْلُ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ولم يقرر ذلك، بل ترك الجواب لمن يجيب وهو معلوم، في حين قرر ذلك في آية غافر ولم يسأل، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ...﴾ لأن جواب هذا السؤال فيه اختلاف وليس بمنزلة السؤال الأول، فالفرق واضح بينهما.

(١) فتح القدير ٤/٤٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٨٥/٤.

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]

فإن الجواب واضح من دون حاجة إلى طول تأمل وتذكر، فقال (تذكرون).

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ

عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

[الجن: ٢٣]

فلو سألت أي شخص هل بإمكانه أن يهدي شخصاً هذا شأنه:

١- أنه اتخذ إلهه هواه. ٢- أضله الله على علم.

٣- ختم على سمعه. ٤- ختم على قلبه.

٥- جعل على بصره غشاوة.

لأجاب بالنفي ولقال إنه ليس بوسع أحد أن يهدي مثل هذا الشخص غير الله ،

والإجابة عن هذا لا تحتاج إلى طول تأمل وتفكير.

فإنه ليس بوسع أحد أن يهدي شخصاً لا يسمع ولا يرى ولا يفقه،

فكيف بمن اتخذ إليه هواه مع كل ذلك؟

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ

أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]

فقال (تذكرون) بثناء واحدة، وذلك إنها خطاب للمؤمنين، فقد جاء قبل هذه

الآية قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ....﴾.

والمؤمنون لا يحتاجون إلى طول تذكر لاتباع ما أنزل إليهم من ربهم، بل

أنهم بتذكر قليل يفعلون ذلك، فحذف من آية الأعراف لذلك، جاء في (تفسير فتح

القدير) في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ....﴾: "يعنى الكتاب ومثله

السنة لقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ونحوها من الآيات

وهو أمر للنبي ﷺ ولأمره، وقيل: أمر للأمة بعد أمره ﷺ بالتبليغ، وهو منزل إليهم

بواسطة إنزاله إلى النبي ﷺ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ نهى للأمة أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤-٥]

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]

فقال في السجدة: (أفلا تتذكرون) وقال في يونس: (أفلا تذكرون) وذلك أنه

فصل في السجدة ما لم يفصل في يونس وذلك:

١- أنه قال في يونس: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وقال في السجدة: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

فزاد في السجدة: (وما بينهما).

٢- قال في يونس: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾.

وقصل في السجدة فقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَيْهِ

فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ففصل ما أجمله في يونس.

٣- قال في يونس: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾

وقال في السجدة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾، فزاد الولي،

قاطال في فعل التذكر في السجدة، فقال (تتذكرون) وحذف من الفعل في يونس، فقال (تذكرون) مناسبة للقام.

ومن الذكر والحذف في الفعل قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾

[الكهف: ٦٤] بحذف الياء من الفعل.

وقوله: ﴿قَالُوا يَا أَبَاتَنَا مَا تَبْغِي هَذِهِ بَضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] بعدم

الحذف، ذلك أن الحدث مختلف في الآيتين، وإن السياق يوضح ذلك.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا

أُنْسِيهِ إِنَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ

فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٣-٦٤]

وتسيان الحوت ليس هو ما يبغيه موسى على وجه الحقيقة، وإنما يبغى

الشخص الذي يريد موسى أن يتعلم منه.

وأما في سورة يوسف، فالطعام هو ما يبغون وهو سبب رحلتهم، ففرق بين

البعيتين، فلما كان ما في الكهف ليس هو ما يبغون حذف من الحدث إشارة إلى عدم

إرادة هذا الحدث على وجه التمام، وإنما هو علامة على الموضع الذي يجدون فيه

بغيتهم.

ولما كان ما في يوسف هو بغيتهم ذكر الفعل كاملاً ولم يحذف منه، فناسب

كلُّ مقامه والله أعلم

٢- قد تُحذف ياء المتكلم ويجتزأ عنها بالكسرة، وذلك لا يكون إلا لغرض،

فإنه قد تذكر الياء في مقام الإطالة والتفصيل وتُحذف ويجتزأ عنها بالكسرة في مقام

الإيجاز والاختصار، وقد تُحذف لغرض آخر يقتضيه المقام، إضافة إلى ذلك وذلك،

كان يكون المقام يقتضى إظهار النفس أكثر من مقام آخر، وذلك نحو قوله تعالى:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] بذكر الياء، وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ

وَإِخْشَوْنِي﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَارْجَوْا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٤٥]، بحذف

الياء منهما، وذلك لأكثر من سبب منها:

١- أن مقام الإطالة والتفصيل في سورة البقرة أكثر بكثير من سياق الأيتين الآخرين، فإن الكلام على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وهو يبدأ بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا.....﴾ [البقرة: ١٤٢] ويستمر إلى الآية ١٥٠.]

أما آية المائدة ذات الرقم ٣، فهي آية واحدة في الأطعمة المحرمة، وهو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ يَسْقُ الْيَوْمَ الْيَوْمِ يَكُسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وأما الآية الأخرى فهي في سياق الكلام على التوراة في آيتين وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ.....﴾ [المائدة: ٤٤-٤٥] فاقتضى ذلك الزيادة في البناء (اخشوني) في البقرة دون الأيتين الآخرين.

٢- أن آية البقرة في تحويل القبلة من بيت المقدس، وقد أثار ذلك فتنة وملاحاة وأرجافاً من المشركين واليهود، حتى قال المشركون (إن محمداً تحير في دينه)^(١) وحتى ارتد قسم من ضعاف الإيمان^(٢) وقد ذكر القرآن هذا الأمر، فقال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]

(١) فتح القدير ١/ ١٣٦، ١٣٧.

(٢) الظر روح المعاني ٥/٢.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣].
 ﴿وَلَكِنَّ أَقْيَمَ الَّذِينَ اتَّوُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥].
 ﴿وَلَكِنَّ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].
 ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧].

أما آية الأطعمة فليس فيها ملاحاة ولا إرجاف ولا إثارة، ثم هي بعد انتصار المسلمين وعزة الإسلام واكتمال الدين، فقد قال تعالى فيها: ﴿الْيَوْمَ يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.
 وكذلك آيتا التوراة ليس فيهما إثارة ولا خصومة، فقد ذكر أن التوراة أنزلت فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا لليهود ويحكم بها الربانيون والأحبار. وليس فيها ما يستدعي ملاحاة ولا فتنة.
 فافتضى المقام في آية البقرة ذكر نفسه سبحانه والتخويف منه وإظهار نفسه لخشيته أكثر من المقامين الآخرين.

٣- أن الشخص يذكر بالله ويخوف منه على قدر العمل الذي يطلب منه القيام به أو يحذر من القيام به، فكلما كان العمل أكبر كان التذكير بالله والتخويف منه أشد. فالذى يقدم على القتل ليس كمن يعتدى على آخر بالسب أو بالضرب، فإن المقدم على القتل يخوف بالله ويحذر أكثر بكثير من الشخص الآخر، وكذلك إذا طلب من شخص أن يقوم بأمر لا ينهض به غيره، كان يُطلب منه الوقوف في وجه ظالم طاغ أو محاربة صائل، فإنه يذكر بالله ويخوف منه إذا أحجم عن ذلك أكثر بكثير من آخر ليس بمثل هذه المنزلة، ولا شك أن التحول في القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

المشرفة فيه من الإرجاف والفتنة ومظنة الارتداد عن الدين ما ليس في الأمرين الآخرين، فاقضى ذلك إظهار الله لنفسه بذكر الياء، فقال (واخشوني) وأن يجتزئ بالكسرة إشارة إلى المتكلم في الموطنين الآخرين.

٤- أن آيات البقرة فيها توكيدات وهي تناسب هذا الإظهار، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...﴾ [البقرة: ١٤٤]، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [البقرة: ١٤٩]، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩]، وغيرها.

فاقضى ذلك إظهار الياء في البقرة دون الآيتين الآخرين.
ومن ذلك قوله تعالى على لسان المنوفى: ﴿لَوْ كُنَّا أَخْرَجْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأُصَدِّقُ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] بذكر الياء في (أخرتني)، وقوله على لسان إبليس: ﴿لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] بحذف الياء منه.

والفرق بين المقامين ظاهر، ذلك أن طلب إبليس "لا يريد من أجل نفسه ولا لأنه محتاج إليه، وإنما يريد ليضل ذرية آدم، ثم إن هذا الطلب لا يعود عليه بنفع ولا يدفع عنه ضرراً وليس له مصلحة فيه، بل العكس هو الصحيح، بخلاف الطلب الآخر، فإنه يريد لنفسه حقاً وأنه لا شيء ألزم منه لمصلحته هو ودفع الضرر عنه فلما كان طلب التأخير لمصلحة الطالب حقاً وأنه ابتغاء لنفسه على وجه الحقيقة أظهر الضمير، ولما كان طلب إبليس ليس من أجل نفسه ولا يعود عليها بالنفع حذف منه الضمير واجتزأ بالكسرة.

ثم في الحقيقة: إن كلام إبليس ليس طلباً، وإنما هو شرط دخل عليه القسم، فقال (لئن أخرتني) فهو من باب الطلب الضمني وليس من باب الطلب الصريح.

وأما قوله (لولا أخرتني) فهو طلب صريح، ففرق تبعاً لذلك بين التعبيرين، فصرح بالضمير وأظهر نفسه في الطلب الصريح، وحذف الضمير واجتزأ بالإشارة إليه في الطلب غير الصريح، وهو تناظر جميل، ففي الطلب الصريح صرح بالضمير، وفي الطلب غير الصريح لم يصرح بالضمير^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقال في الآية الأولى: (وَمَنِ اتَّبَعَنِ) بلا ياء، وقال في الآية الثانية: (وَمَنِ اتَّبَعْنِي) بالياء، ذلك أن الآية الأولى في الدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِثْنَا بِهِنَّهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٩-٢٠].

وأما الآية الثانية فهي في الدعوة إلى الله وهي خصوصية بعد الدخول في الإسلام.

ولا شك أن الدعوة إلى الله تتطلب علماً وبصراً بأحكام الإسلام أكثر من مجرد الدخول في الإسلام، لأنها مقام تبليغ وهذا لا يكون إلا عن علم وبصيرة وخاصة أنه قال (على بصيرة)

(١) لمسات فنية (من سورة المنافقون).

ثم إنها تتطلب اتباعاً للرسول أكثر في القول والعمل، فإن الذي يقف نفسه للدعوة إلى الله ينبغي أن يكون شديد الالتزام بتعاليم الإسلام والاتباع لرسوله الكريم قولاً وعملاً حتى يكون مقبولاً مجاباً.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المذكورين في آية يوسف داخلون في الآية الأولى فهم مسلمون، وأما المذكورون في آية آل عمران فلا يشترط أن يكونوا داخلين في آية يوسف، إذ ليس كل مسلم داعياً إلى الله على بصيرة، وبذا يكون اتباع الرسول في آية يوسف أكثر، فهو يشمل الاتباع الأول وزيادة فكان ذكر الياء فيها أولى من الاجتزاء بالكسرة، لأن الياء عبارة عن الكسرة وزيادة فلما زاد الاتباع بذكر الياء فوضع كل تعبير في مكانه المناسب والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، بحذف الياء من (تسألني).

وقوله: ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] بذكرها.

إن الآية الأولى هي في سؤال نوح لربه بعد ما غرق ابنه قانلاً: «رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ» [هود: ٤٥] فقال له ربه: «قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ.....» [هود: ٤٦].

وأما آية الكهف فهي في اشتراط الخضر على موسى إذ صاحبه أن لا يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يخبره.

فحذف الياء من آية هود وذكرها في آية الكهف، وبالنظر في السياقين يتضح ما يأتي:

١- في قصة موسى والخضر أن الخضر كان يتوقع أن يسأله موسى عن كل عمل يقوم به مما لا يدرك حكمته، وأحداث المصاحبة بينهما قائمة كلها على أن

الرجل الصالح يعمل أعمالاً مستكرة فيما يرى موسى فيستنكر ويعترض أو يسأل، إذن فالقصة كلها تدور حول ما يفعله الخضر واعتراض موسى، في حين أنه لم يكن في قصة نوح إلا سؤال واحد وهو عن شأن ابنه، فاقترضى مقام الإطالة والتفصيل في الكهف ذكر الياء دون هود.

٢- إن موسى سأل عن ثلاثة أمور مما شاهد في حين سأل نوح أمراً واحداً، فناسب الإطالة بذكر السؤالات وتعددتها أن يذكر الياء في الكهف.

٣- كان التحذير من السؤال في هود أشد مما في الكهف، وقد عقب على سؤال نوح بقوله: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] وليس الأمر كذلك في الكهف، بل ألمح إلى أنه سيعلمه حكمة ما يقوم به فيما بعد، فقال: ﴿حَتَّىٰ أَحْبَبْتَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

فناسب ذلك حذف الياء في هود إشارة إلى النهي عن أصل الحدث بخلاف ما في الكهف.

ومن نافلة القول أن نقول: إن السؤال يختلف في الآيتين، فالسؤال في الكهف هو سؤال الاستفهام والاستفسار ولذا عذاه بعن، فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أما سؤال نوح فإنه سؤال طلب كما نقول: سألته حاجة ولذلك عذاه بنفسه.

وقد يكون ذكر الياء وحذفها لغرض آخر قريب مما مر وهو أن يكون ما فيه الياء أوسع وأشمل مما حذفته منه الياء وذلك نحو ما ورد من ذكر ياء المتكلم وحذفها من كلمة (عباد) و (عبادي) فما ذكرت فيه الياء أوسع وأشمل مما حذفته منه، فكان طول البناء إشارة إلى سعة المجموعة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فالعباد هنا قاعدة عريضة واسعة، فالذين أسرفوا على أنفسهم هو الأكثرون، قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿وَإِن

تَطْعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» [الأنعام: ١١٦]، وقال: «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ» [سبا: ١٣] فذكر الباء.

ونحوه قوله تعالى: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» [البقرة: ١٨٦].

فالعباد هنا أكثر وهم عموم العباد، فهم إذا سألوه فهو قريب منهم يجب داعيهم فذكر الباء.

ونحوه قوله تعالى: «وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا» [الإسراء: ٥٣] وهو طلب من عموم عباد الله تعالى أن يقولوا التي هي أحسن وهم مجموعة واسعة من عباد الله لو بقيد بقيد، وإنما هي مطلقة فذكر الباء.

وقوله: «يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِيْدُونَ كُلَّ نَفْسٍ دَائِقَةً الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» [العنكبوت: ٥٦-٥٧].

والمؤمنون أيضاً طبقة واسعة، إذ هم لم يقيدوا بغير الإيمان، وقد تقول: ولكنه قال في مكان آخر: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [الزمر: ١٠].

والحق أن الفرق بينهما واضح من وجوه منها:

١- أنه قال في آية الزمر: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ» فخصص الذين آمنوا بطلب التقوى فضيق دائرة المؤمنين، وذلك أن عموم المؤمنين أكثر من المتقين، في حين أنه لم يقيدهم بغير الإيمان في العنكبوت فهم طبقة أوسع.

٢- طلب في آية الزمر من المؤمنين التقوى وطلب من آية العنكبوت العبادة، والعبادة أوسع من دائرة التقوى، وبهذا اتسعت الصفة في آية العنكبوت وشملت جماعة أكبر، فالمتقون أقل ممن يقومون بالعبادات على العموم، فليس كل من يقوم بالعبادة متقياً.

٣- ومما حسن إظهار الياء في (عبادي) في العنكبوت، قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ فأضاف الأرض إلى الياء (أرضي) فالأرض أرضه والعباد عبادَه، فأظهر ضمير المتكلم في الموطنين في السكن والساكن (عبادي).

في حين لم يصفها إلى الياء في آية الزمر، وإنما قال: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وههنا أمر آخر وهو أنه لا يحسن إضافة الأرض إلى ياء المتكلم في الزمر لأنه قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ﴾ فلو قال: (وأرضي واسعة) لأوهم ذلك أن الأرض أرض المبلغ، أي أرض الرسول، فيكون المعنى: قل لهم إن أرضي واسعة، فهذا يحتمل أن تكون الأرض لله وأن تكون للرسول، فلما قال: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ رفع هذا الاحتمال بخلاف ما في آية العنكبوت، فإنه قال فيها: (يا عبادي) ولم يقل (قل يا عبادي)، فأضافة الأرض إلى ياء المتكلم في العنكبوت أنسب، وإضافتها إلى الله في آية الزمر أنسب، والأرض مما يصح أن تضاف إلى الله وإلى غيره فتقول: أرض فلان وأرض الله، قال تعالى: ﴿وَأُورِثُكُمْ أَرْضَهُمْ وَيُبدِّلَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

٤- ثم إن سعة الأرض مؤكدة في آية العنكبوت دون آية الزمر، فقد قال: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ فوسع مجموعة العباد مناسبة لهذه السعة، في حين قال في آية الزمر: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ من دون تأكيد.

٥- قال في آية الزمر: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقال في آية العنكبوت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، والصابرون قليل ليسوا كثيراً فهم حزة ممن يدوقون الموت الذين ذكرهم في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فهذه تشكل عباد الله بخلاف آية الزمر.

فلما توسعت دائرة العباد في العنكبوت، قال (يا عبادي) بالياء، فأظهر الضمير، ولما قلل العباد في الزمر حذف الضمير.

٦- ذكر ضمير المتكلم مع العبادة مرتين في العنكبوت، فقال: ﴿فَإِذَا بَايَ فَأَعْبَدُونَ﴾ فالضمير الأول هو (إياي)، والثاني هو (الياء) المحذوفة من (اعبدون)

في حين قال في الزمر ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ من دون ذكر الضمير المتكلم، فلم يقل (فاتقون) ولا (وإياي فاتقون).

فناسب ذلك إبراز الضمير مع العباد في آية العنكبوت دون الزمر.

٧- قال في العنكبوت: ﴿إِنَّا تَرَجُّعُونَ﴾ فذكر مرجع الخلق إليه بذكر ضمير

المتكلمين في (إينا) فناسب إبراز ضمير المتكلم مع العباد، فإن عباده يرجعون إليه.

٨- قال في آية الزمر: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا

الجزء ليس متسعاً اتساع ما قال في العنكبوت وهو ﴿إِنَّا تَرَجُّعُونَ﴾، فليس كل العباد

يوفون أجرهم بغير حساب، ولكنهم كلهم يرجعون إليه فاتسعت الدائرة في العنكبوت

فزاد الياء.

٩- ثم إن ضمانر المتكلم في آية العنكبوت أكثر مما في آية الزمر، فليس في

آية الزمر غير ضمير محذوف دلت عليه الكسرة في قوله (يا عباد)، في حين أن في

العنكبوت خمسة ضمانر للمتكلم والمتكلم المعظم نفسه، وفي ضمير المتكلم في

(عبادي)، والضمير في (أرضي)، والضمير (إياي)، والضمير الذي دلت عليه

الكسرة في (فاعبدون) والضمير المعظم نفسه في (إينا).

فحسن إبراز الضمير في آية العنكبوت دون آية الزمر.

١٠- ثم إن لفظ العموم (كل) في العنكبوت مما حسن إبراز الضمير لأنه يدل

على العموم والشمول، إذ اتسعت به دائرة العباد اتساعاً شاملاً، بحيث لم يستثن أحداً

منهم بخلاف ما في العنكبوت.

١١- أن سورة الزمر تكاد تكون مبنية على ضمير الغيبة وعلى الالتفات من

المتكلم إلى الغيبة، بخلاف سورة العنكبوت فإنها مبنية على ذكر النفس، فإنه بعد أن

قال في الزمر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢] التفت إلى الغيبة فقال:

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] ولم يقل (فاعبدني) ثم سار الكلام على هذا

النسق، فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

لِيَقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» [الزمر: ٣] «لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَنْصُطَفِي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ النَّعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ثَلَاثٌ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِلٌ تَصْرَفُونَ» [الزمر: ٤-٦] «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» [الزمر: ٧]، «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ...» [الزمر: ٨] فقال: (دعا ربه) ولم يقل (دعانا) كما قال في موطن آخر، ثم انظر التناسب اللطيف بين قوله (دعا ربه) وقوله: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ» بذكر (الرب) وهكذا يسير النسق.

بل إنه حتى في قوله: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» التفت من المتكلم إلى الغيبة، فقال: «لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» ولم يقل: (لا تقنطوا من رحمتي إنني أغفر الذنوب جميعاً إنني أنا الغفور الرحيم) وقال في الآية التي هي مدار البحث: (اتقوا ربكم... وأرض الله واسعة) في حين قال في العنكبوت: «إِنْ أَرْضِي وَاسِعَةً فَايَايَ فَاعْبُدُونِ» فبنى الكلام في الزمر على الغيبة وبنى الكلام في العنكبوت على المتكلم وإظهار النفس.

إن سياق سورة العنكبوت مبني على المتكلم، كما ذكرت، فقد قال: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» [العنكبوت: ٣]، «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا» [العنكبوت: ٤]، «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» [العنكبوت: ٧] «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [العنكبوت: ٨]، «لِنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ» [العنكبوت: ٩]، «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا» [العنكبوت: ١٤]، «فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ» [العنكبوت: ١٥] «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ... الخ.

ويستمر إلى أن يقول: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ» [العنكبوت: ٥١]، «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» [العنكبوت: ٥٦] «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا» [العنكبوت: ٥٨] «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ» [العنكبوت: ٦٦] «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُورًا» [العنكبوت: ٦٧].
وختم السورة بقوله: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» [العنكبوت: ٦٩].

فأنت ترى أن جو السورة وسياق الآيات في الزمر مبني على الغيبة في حين أن سياق العنكبوت مبني على المتكلم فناسب ذكر ضمير المتكلم وإبرازه في العنكبوت دون الزمر.

وقد تقول: ولم قال في الزمر «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا» بذكر (قُلْ) ولم يقل مثل ذلك في العنكبوت، بل قال «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» من دون (قُلْ)؟.

والجواب أن سياق الآيات في الزمر مبني على التبليغ بخلاف ما في العنكبوت، فإنه مبني على نكر النفس.

فقد أمر بالتبليغ بقوله (قُلْ) في الزمر أربع عشرة مرة، فقال: «قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا» [الزمر: ٨]، و «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ» [الزمر: ٩]، و «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا» [الزمر: ١٠]، و «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ» [الزمر: ١١] و «قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» [الزمر: ١٣]، و «قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا» [الزمر: ١٤]، و «قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ» [الزمر: ١٥]، «قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ

مَا تَدْعُونَ» [الزمر: ٢٨]، و «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» [الزمر: ٣٨]، و «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا» [الزمر: ٣٩]، و «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا» [الزمر: ٤٤]، و «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ» [الزمر: ٤٦]، و «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» [الزمر: ٥٣]، و «قُلْ أَغْفِرِ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدْ» [الزمر: ٦٤].

في حين لم يأمره بالتبليغ بقوله (قُل) في العنكبوت إلا ثلاث مرات، وهي قوله: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ» [العنكبوت: ٥٢]، و «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» [العنكبوت: ٦٣].

فناسب ذكر القول في الزمر دون العنكبوت.

ومما حذف منه ضمير المتكلم قوله: «فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ» [الزمر: ١٧-١٨]، فحذف الياء لأنهم قلة، فإنه قيد العباد بالذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فهم لم يكتفوا بالحسن، بل يتبعون الأحسن، ولا شك أن هؤلاء قلة... ثم ذكر أن هؤلاء هم الذين هداهم الله وأنهم أولو الألباب.

فحذف الياء لقلة المذكورين نسبياً.

هذه إضافة إلى فواصل الآي، فإن هذه الآية تقع ضمن مجموعة من الآيات حواتمها تنتهي بنحو هذه الفاصلة، وذلك نحو: «وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ» [الزمر: ١٨]، «أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مِنَ النَّارِ» [الزمر: ١٩]، «لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ» [الزمر: ٢٠]، وغيرها، حسن حذف الياء من كل وجه، والله أعلم.

٣- ومن ذلك ذكر حرف المد (الآلف) في فواصل قسم من الآي وعدم ذكره في مواطن أخرى، وذلك بحسب ما يقتضيه المقام، وذلك نحو قوله تعالى: «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا» [الأحراب: ٦٦-٦٧].

بمد (الرسول) و (السبيل) مع أن القياس لا يقتضى المد وهو لم يمد (السبيل) في أول السورة، وإنما قال: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾، والفرق بينهما أن آتَى المد هما من قول أهل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، كما أخبر عنهم ربنا بقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧]، فالمقام هنا مقام صراخ ومد صوت فتناسب المد، في حين أن الآية الأخرى ليست كذلك، وإنما هي قول الله مقراً حقيقة عقلية معلومة، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَاءِ تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فالمقام لا يقتضى المد وهنا بخلاف ذلك. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

فمد (الظنون) وأطلقها، وذلك لأنهم ظنوا ظنونا كثيرة مختلفة فأطلقها في الصوت مناسبة لتعدها وإطلاقها، ولو قال (الظنون) لوقف على الساكن، والساكن مقيد، فتناسب إطلاق الألف إطلاق الظنون.

والمؤمنون وهنا في موقف ضيق وخوف شديدين وزلزلة عظيمة، كما أخبر عنهم ربنا فغرتهم الظنون وشرقوا وغربوا فيها فأطلق الصوت مناسبة لإطلاق الظنون وتعدها، هذا علاوة على رعاية الفاصلة.

فأنت قلت: ولم لم يقل (وتظنون بالله ظنونا) وهي مطلقة أصلاً؟

قلنا: كان ذلك لأكثر من سبب. فإن هذا إطلاقه واجب، فلا يفيد أنه أطلق الصوت لإطلاق الظنون ولا أنه أطلقه لنكته، ثم إن الظنون التي ظنها أصحاب رسول الله معلوم لهم معلومة لله فهي معارف لا نكرات فتناسب ذلك التعريف والمد.

ومن ذلك ما جاء في سورة [الإنسان]: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥-١٦].
فأطلق (القوارير) الأولى بالآلف وكان حقا ألا تُطلق لأنها ممنوعة من الصرف.

ومن دواعي ذلك - والله أعلم - أنه أطلق الصوت فيها مناسبة لإطلاق جنسها ونوعها، فهو لم يبين نوع القوارير ولا من أي جنس هي فأطلقها لذلك، ولما قيد جنسها في الآية التي تليها، فقال: ﴿قَوَارِير مِّن فِضَّةٍ﴾ لم يطلقها، هذا علاوة على رعاية الفاصلة فزادها ذلك حسناً على حسن، والله أعلم.



الإبدال

قد يستعمل القرآن الكريم المقردة أحياناً مبدلة وأحياناً غير مبدلة وذلك نحو (يَتَذَكَّرُ) و (يَذْكُرُ) و (يَتَذَبَّرُ) و (يَذْبَرُ)، ونحو مكة وبكة وبسطة وبصطة، فهل لهذا الإبدال غرض؟

إننا نرى أن كل تغيير في التعبير القرآني مهما كان فله سببه، ولا يكون تغيير من دون سبب، وسنذكر أمثلة توضح هذا الأمر:

١- قد ترد الكلمة في التعبير القرآني مبدلة مدغمة مرة، ومرة أخرى ترد غير مبدلة، وذلك نحو قوله في آيات عدة: ﴿لَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وفي آيات أخرى: ﴿لَهُمْ يَذْكُرُونَ﴾، ونحو قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَتَذَبَّرُوا الْقَوْلَ﴾، ونحو قوله: ﴿يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾، وقوله: ﴿يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾، بل ربما جمع الصيغتين في آية واحدة، أو آيات متقاربة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فجمع بين قوله: (يتطهروا)، وقوله (المطهرين).

إن أصل هذا الإبدال هو الفك بالتاء، ف(أَذْبَرُ) أصله (تَذَبَّرُ)، فإبدال تاء دالاً وأدغمت في الدال فسكنت الدال الأولى وجيء بهمزة الوصل توصلاً إلى النطق بالساكن، وكذلك (أَذْكُرُ) أصله (تَذَكَّرُ) و (أَطْهَرُ) أصله (تَطَهَّرُ)، والمضارع كالماضي، فـ (يَذْبَرُ) أصله (يَتَذَبَّرُ)، و (يَذْكُرُ) أصله (يَتَذَكَّرُ) و (يَطْهَرُ) أصله (يَتَطَهَّرُ) وهكذا.

وهو من الإبدال الجائز لا الواجب، ولذا نرى الاستعمالين معاً في اللغة وفي القرآن الكريم.

والمفسرون إذا ورد شيء من هذا أشاروا إلى أنه مندل واكتفوا بهذا على حد ما أعلم.

أما ما يدور في ذهن من سؤال عن الفرق بينهما في الاستعمال القرآني، فالجواب أنه لا بد من أن يكون القرآن الكريم قد فرق بينهما، فإن القرآن دقيق غاية في الدقة في الاستعمال وهو لا يستعمل لفظين بمعنى واحد تماماً وإن كانتا مترادفتين أو مبدلتين وحتى إذا كانتا من لغتين، فهو يخص كلا منهما بمعنى، وذلك كما خص (العيون) بعين الماء ولم يستعملها للباصرة، وكما خص (يشاقق) بمقام.

و (يشاقق) بمقام^(١) مع أن أنهما لغتان مختلفتان فخص كل لغة بسياق.

ونعود إلى مسألتنا فنقول: إن هناك حقيقتين لغويتين لا بد أن نذكرهما في هذا الأمر:

الأولى: أن بناء (يتفعل) أطول من بناء (يفعل) في النطق، فـ(يتَذَكَّر) أطول من (يَذَكَّر) بمقطع واحد، فـ(يتَذَكَّر) متكون من خمسة مقاطع: (يَ + تَ + ذَكَ + كَ + رُ) في حين أن (يَذَكَّر) متكون من أربعة مقاطع: (يَذْ + ذَكَ + كَ + رُ).

والحقيقة الثانية أن بناء (يفعل) فيه تضعيف زائد على (يتفعل)، ففي (يفعل) تضعيفان وفي (يتفعل) تضعيف واحد.

وهاتان الحقيقتان اللغويتان لهما شأنهما في تفسير ما نحن بصددده، فما كان على وزن (يتفعل) قد يؤتى به في اللغة للدلالة على التدرج أي الحدوث شيئاً فشيئاً، وذلك نحو تخطى وتمشى وتبصر وتجسس، فهناك فرق بين (مشى) ، و (تمشى)، و (خطا)، و (تخطى)، و (جس)، و (تجسس)، ففي تمشى وتخطى من التدرج ما ليس في مشى وخطا.

وقد يؤتى بهذا الوزن للدلالة على التكلف وبذل الجهد، نحو: تصبّر وتحلم، أى كلف نفسه وحملها على الصبر والحلم، وفى كلا المعنيين دلالة على الطول فى الوقت والتمهل فى الحديث، وكذلك الأمر فى القرآن الكريم، فإذا اجتمعت صيغتان من هذا البناء فى اللغة (يتفعل) و (يفعل) استعمل (يتفعل) لما هو أطول زمناً من (يفعل)، وذلك لأن الفك أطول زمناً فى النطق كما ذكرنا، فهو ملائم للطول فى الحديث، ومثل هذا التناسب وجدناه فى أمور عدة فى اللغة: فهناك تناسب بين البناء والمعنى إلى حد كبير ويكفى أن تعود فى مثل هذا إلى باب (امساس الألفاظ أشباه المعاني) فى كتاب الخصائص^(١) لابن جنى ليتضح لك هذا.

وما كان على وزن (يفعل) يأتى به القرآن فيما يحتاج إلى المبالغة فى الحديث، وذلك لأن التضعيف كثيراً ما يؤتى به للمبالغة نحو فعل وفعل ك (قطع) وقطّع وكسر وكسّر، ففى قطع وكسّر من المبالغة ما ليس فى قطع وكسر، ونحو فُعال وفُعلال مثل كُبار وكُبّار فـ (كُبّار) أبلغ من (كُبار) فى الاتصال بالحدث، ففى قطع وكسر من المبالغة ما ليس فى قطع وكسر، ونحو فُعال وفُعلال مثل: كُبار وكُبّار فـ (كُبّار) أبلغ من (كُبار) فى الاتصاف بالحدث، كما هو مقرر فى كتب اللغة، فتكرار الحرف إشارة إلى تكرار الحدث، جاء فى (الخصائص): "ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين فى المثال دليلاً على تكرير الفعل فقالوا: كسّر وقطّع وفُتّح وغُلق"^(٢).

ومن ذلك فى غير الأفعال نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة فإن الثقيلة أكد من الخفيفة، ونحو (إن) غير المخففة و(إن) المخففة فغير المخففة أكد من المخففة.

وهكذا يفرق القرآن الكريم بين الصيغتين.

(١) الخصائص ١٥٢/٢ وما بعدها.

(٢) الخصائص ١٥٥/٢.

وعلى هذا فإنه يستعمل بناء (يتفعّل) لما هو أطول زمناً، وقد يستعمله في مقام الإطالة والتفصيل.

ويستعمل (يفعل) للمبالغة في الحدث والإكثار منه.

ومن ذلك في سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعْنَهُمْ يَتُضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعْنَهُمْ يَتُضَرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

فقال في آية الأنعام (يتضرعون)، وقال في الأعراف (يتضرعون) بالإبدال والإدغام. وذلك أنه قال في آية الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وقال في الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ والأمم أكثر من القرية، وهذا يعنى تطاول الإرسال على مدار التاريخ، فلما طال الحدث واستمر جاء بما هو أطول بناء، فقال: (يتضرعون) ولما كان الإرسال في الأعراف إلى قرية (يضرعون) فجاء بما هو أقصر من البناء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه استعمل في آية الأنعام (أرسل إلى)، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ﴾ واستعمل في الأعراف (أرسل في) فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ والإرسال إلى شخص ما يقتضى التبليغ ولا يقتضى المكث، فإنك قد ترسل إلى شخص رسالته فيبلغها ويعود. وأما الإرسال في القرية أو في المدينة، فإنه يقتضى التبليغ والمكث فإن (في) تفيد الظرفية، وهذا يعنى بقاء النبي بينهم يبلغهم ويذكرهم بالله ويريهم آياته المؤيدة، ولا شك أن هذا يدعوهم إلى زيادة التضرع والمبالغة فيه، فجاء بالصيغة الدالة على المبالغة في الحدث والإكثار منه فقال: ﴿لَعْنَهُمْ يَتُضَرَّعُونَ﴾ فوضع كل مفردة في مكانها اللائق بها.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأُهِّلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا
بِبَضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾
[يوسف: ٨٨].

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ
وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].
وقوله: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

فقال في آية يوسف: (المتصدقين) وقال في آية الأحزاب: (المتصدقين
والمصدقات) غير أنه قال في آية الحديد: (إن المصدقين والمصدقات) بالإبدال
والإدغام.

وقد ناسب كل تعبير موطنه.
ففي آية يوسف قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ولم يقل (المصدقين)
لأكثر من سبب:

منها أنه مناسب لقوله ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾.
ومنها أنهم طلبوا التصديق ولم يطلبوا أن يبائع لهم في الصدقة، وذلك من
حسن أدبهم.

ومنها أنه لو قال: (إن الله يجزي المصدقين) لأفاد ذلك أن الله يجزي
المبالغين في الصدقة دون من لم يبائع. وهذا غير مراد فإن الله يجزي على القليل
والكثير وهو يجزي المتصدق والمصدق، فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يدخل
فيه المصدقون، ولو قال: (يجزي المصدقين) لم يدخل المقلون في صدقاتهم، والله
أعلم.

وأما ما ورد في الأحزاب، فقد جاء بها على الأصل من غير إدغام، وذلك للتفصيل في الصفات وتعدادها والإطالة في ذكرها، فناسب الفك ويشمل عموم أصحاب الصدقة.

وأما ما في آية الحديد، فإنه ذكر المبالغين في الصدقات وذكر أنه يضاعف لهم، ولهم أجر كريم، وكل اقتضى مكانه، فإنه ذكر مَنْ بالغ في الصدقة في سورة الحديد لأنه تكرر فيها ذكر الإنفاق والنهي عن البخل، فناسب ذكر المبالغة في الصدقة.

فقد قال: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

وقال: ﴿إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ [الحديد: ١٨].

وقال: ﴿الَّذِينَ يَخْلَتُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

في حين لم يرد ذكر الإنفاق والصدقات في سورة الأحزاب على طولها وهي ثلاث وسبعون آية عدا ما ورد في هذه الآية التي جمعت عدداً من صفات أهل الإيمان.

وقوله مخاطباً نساء النبي: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فناسب ذكر المبالغين في الصدقات في الحديد دون الأحزاب، والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] في حين قال: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

فقال في الآيتين الأوليين (يتدبرون) وقال في الآية الأخرى (يذبروا) ذلك أن المقام في الآيتين الأوليين يحتاج إلى طول التدبر والتأمل، وأن المقام في الآية الأخرى يحتاج إلى عمق في التدبر ومبالغة فيه.

وأعني بطول التدبر والتأمل التدبر العقلي الطويل الذي يؤدي إلى القناعة العقلية عن طريق النظر في الحجج والاستدلال العقلي.

وأعني بعمق التدبر والمبالغة فيه التدبر القلبي الذي يحمل الإنسان على الانتفاض للعمل بمقتضى ما يؤمن به العقل ويسلم بصحته، فهو هزة إيمانية عنيفة تنبعث من الأعماق تصحح ما ينبغي تصحيحه من اعتقاد أو سلوك.

وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى في آية النساء: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فالنظر في القرآن وتخريج ما يبدو مختلفاً لأول وهلة يحتاج إلى طول تدبر وتأمل، فطول التأمل والنظر ههنا مئات من ناحيتين.

١- من ناحية أن النظر شامل للقرآن كله على وجه العموم، وليس في قسم منه ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.

٢- من ناحية النظر في عدم الاختلاف بين آياته وتخريج ما يبدو مختلفاً، فجاء لذلك بلفظ (يتدبر).

فهذا يراد به التدبر العقلي والنظر الاستدلالي، والله أعلم.

وقال في آية [محمد]: «أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»

[محمد: ٢٤]، وهذا يحتاج إلى طول تدبر ونظر أيضاً، وذلك أن قبل هذه الآية قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ» [محمد: ٢٣].

فهم مصابون بالصمم والعمى وعلاوة على ذلك أن قلوبهم مقفلة «أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» والمصاب بالصمم والعمى محتاج إلى تكرار التذكير وتطاوله للوصول إلى الإدراك الصحيح والفهم السليم، كما أن القلوب المقفلة تحتاج إلى طرق كثير وإلى تكرار محاولات الفتح لتفتح.

فهذه الأوصاف تستدعي طول التدبر والنظر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه قال: «أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ» فجعل القرآن كله موضوعاً للتدبر وليس قسماً منه فزاد ذلك في وقت التدبر وأمدّه، فطول التدبر متأت من ناحيتين أيضاً:

١- من ناحية الأوصاف التي تستبعد الفهم.

٢- من ناحية كثرة المتدبر وهو القرآن الكريم كله.

ثم إن التدبر ههنا عمل عقلي كما يبدو، فقد ذكر أن السبل التي توصل العقل إلى الحكم الصحيح معطلة، فالسمع معطل، والبصر معطل، والقلوب مقفلة، فكيف يصل العقل إلى الحكم السليم؟

في حين قال في آية أخرى: «أَفَلَمْ يَذَبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ» [المؤمنون: ٦٨].

ولم يقل (يتدبروا) وذلك أنه أخذهم على عدم مضاعفة التدبر وعدم المبالغة

فيه من ناحية، وأخذهم من ناحية أخرى على عدم إعمال قلوبهم في التدبر، فهم محتاجون إلى تدبر يوقظ ويحيي موانعها.

والدليل على أن التدبر هنا عمل قلبي لا عمل عقلي أن هؤلاء كما أخبر الله عنهم يعرفون رسولهم ولا ينكرونه ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُكْرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

وذكر أن هؤلاء كارهون للحق وأنهم لا يعملون بمقتضاه وإن عرفوه: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] وأنهم متبعون للهوى لا لحكم العقل والمنطق: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فهم إذن لا يحتاجون إلى طول تدبر للوصول إلى معرفة الحق فهم يعرفون الحق، ويعرفون رسولهم، غير أنهم كارهون للحق متبعون للهوى، فهم محتاجون إلى ما يشفي قلوبهم من كراهية الحق واتباع الهوى.

فاقتضى هذا التدبر القلبي لا العقلي.

هذا علاوة على أنه قال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ ولم يقل: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقُرْآنَ﴾

كما قال في الآيتين الأخريين، والقول قد يشمل الآية والايين منه فدعاهم إلى تدبر القول، وهذا يتطلب وقتاً أقصر من تدبر عموم القرآن، فلما قصر من المنذر قصر من التدبر، ولما أطال في الآيتين الأخريين فجعله القرآن كله أطال البناء، والله أعلم. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الَّذِينَ الَّذِينَ يُوْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾

[الليل: ١٧٠-١٨].

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّةَ يَزْكَى﴾ [عبس: ٣].

فقال في الآية الأولى: (يتزكى) وقال في الآية الثانية: (يزكى) بالإبدال

والإدغام.

ذلك أن الآية الأولى في بيتاء المال وهو مستمر متطاوّل مدى العمر، فجاء بالصيغة الطويلة للدلالة على الطول في الزمن، في حين أن الثانية في الأعمى الذي جاء يسأل رسول الله فأعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَسَّى أَن

جاءه النَّاعِمَى وَمَا يُذَرِّكَ لَعْنَهُ يُزَكِّي» [عبس: ١-٣]، ولا شك أن مدة هذا الفعل أقصر من مدة إيتاء المال، ذلك لأنه جاء يستفهم أو يسترشد في وقت من الأوقات فيزكي قلبه بذلك.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التزكي الأول مقرون بإيتاء المال، وأن التزكي الثاني مقرون بالخشية وطلب الذكر النافع: «وَأَمَّا مَنْ جَاعَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَتَتْ عَنْهُ تَلَهَّى» [عبس: ٨-١٠] والخشية أمر قلبي.

فاستعمل (يتزكى) لما هو طويل الأمد ودال على التدرج ولما اقترن بإيتاء المال، واستعمل (يزكى) لما هو عمل قلبي مقرون بالخشية والسعى إلى الذكر، وهو نظير ما ذكرناه في يتدبر ويدبر.

ومن ذلك قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» [البقرة: ٢٢٢].

وقوله: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ» [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

فقال في آية البقرة: «يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» وقال في آية التوبة: «يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ» ذلك أن الآية الأولى في الطهر من الحيض والتطهر منه، وهو متكرر متناول في العمر، فجاء به على صيغة الفك لأنها أطول.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التطهر في الأولى أمر بدني بالنسبة إلى النساء والرجال، فالنساء ينبغي أن يتطهرن من الحيض، والرجال ينبغي أن يعتزلوا النساء حتى يتطهرن.

وأما الآية الثانية، فالتطهر فيها منظور إلى التطهر القلبي أولاً، ذلك لأنها نزلت في المنافقين الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله وهذا من قساد الباطن وسوء السريرة ودنس القلب، وقد قال الله فيهم وفي أضرابهم من المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠] فأمر الله رسوله بترك هذا المسجد وعدم القيام فيه وطلب منه القيام فيما أسس على التقوى... ثم ذكر بإزاء أولئك المنافقين أصحاب القلوب الدنسة رجالاً آخرين وهم أصحاب القلوب الطاهرة المنية إلى ربها، فقال فيهم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ ومعناه أنه يحب الذين يبالبغون في التطهر.

فاستعمل التطهر في الآية الأولى - أعنى آية البقرة - للبدنى واستعمله في الآية الثانية للقلب وهو أبلغ.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الآية الأولى في عموم المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدين، وأن الثانية في صحابة رسول الله. فاستعمل الأبلغ للصحابة، لأنهم أكمل الناس طهارة ظاهر وباطن، واستعمل الصيغة الطويلة في المدة المتطاولة.

وهذا نظير ما مر من قوله يتزكى ويتدبر ويتذكر. وقد نقول: ولكنه قال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾ فجاء بالفتح ولم يقل (يُطَهَّرُوا).

ونقول: إن الله جمع لهم بين التطهرين: التطهر في القلب والتطهر في البدن، وذلك أبلغ وأمدح من أن يذكرهما بنوع واحد، فإنه يحب المتطهرين جميعاً. ونحو ذلك ما استعمله القرآن الكريم في (يتذكر) و (يُتَذَكَّرُ) فاستعمل (يتذكر) للتذكر العقلى ولما كان يحتاج إلى طول وقت.

واستعمل (يُذَكَّر) لما كان فيه هزة للقلب وإيقاظ له ولما كان فيه مبالغة وقوة في التذكر، فقال مثلاً: «فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى» [النازعات: ٣٤، ٣٥]، وهذا تذكر عقلى لما عمله الإنسان في حياته، وما عمله يستغرق عمره كله، فهو تذكر يستغرق وقتاً طويلاً، لأنه تذكر لما سعاه في حياته وهو تذكر عقلى وليس تذكر قلبياً يدفعه إلى أن يعمل شيئاً آخر ينفعه. ونحوه قوله تعالى: «وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى» [الفجر: ٢٣]

وهذه الآية نظيرة الآية السابقة، فاستعمل (يُذَكَّر) فيها أيضاً. ونحوه قوله تعالى: «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ» [فاطر: ٣٧].

أى بقيتم فى الدنيا مدة طويلة فيها كفاية للتذكر، ولكنكم لم تتذكروا، وقال: «أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئُوا الْأَلْبَابِ» [الرعد: ١٩].

وهو تذكر يقوم على المحاكمة العقلية، والمقصود بالآية: أفمن يعلم كمن لا يعلم؟

ونحو قوله تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئُوا الْأَلْبَابِ» [الزمر: ٩].

وهذه الآية نظيرة الآية السابقة فى المفاضلة بين الذى يعلم والذى لا يعلم وهو أمر عقلى، فجاء بـ(يتذكر) أيضاً، والعلم يحتاج إلى النظر الطويل والتدرج فى المعرفة.

و نظيره قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

والحلوص من المثل إلى موطن الحكمة والاتعاظ، وعقد الصلة بين المثل والواقع كل ذلك يحتاج إلى طول تذكر وتأمل ومحاكمة عقلية، فاستعمل (يتذكرون) له.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٩].

وهو نظير الآية السابقة، إذ أن فيه من المثل المضروب ما يحتاج إلى محاكمة عقلية وطول نظر، ولذا عقب بعد ضرب المثل بقوله: ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فنفى العلم عن أكثرهم.

والوصول إلى العلم أمر عقلي يكون بالتعلم والنظر، وهو نظير آيات العلم السابقة، فاستعمل (يتذكرون) كما استعمله في الآيات السابقة.

غير أنه قال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ فِيمَا تَتَّقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فُشِّرْدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٧].

وهؤلاء مرضى قلوب يعاهدون ثم ينقضون عهدهم في كل مرة، فهم يحتاجون إلى هزة قلبية عنيفة وإلى وسط يقرعهم وإلى عمل يذكرهم ويبالغ في تذكيرهم ليرتدعوا، فالمطلوب تذكر قلبي يرهيبهم ويرعبهم، لأن هؤلاء لم ينتفعوا بالعقل فإنهم أبطلوا عقولهم، ألا ترى أنه سماهم دواب، بل سماهم شر الدواب؟ فاستعمل (يتذكرون) الدال على المبالغة في التذكر والعمق فيه.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ أَوْ لَا يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٦].

وهذه الآية نظيرة الآية السابقة، فهي في مرضى القلوب ألا ترى أنه قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وذكر أن الآيات المنزلة تزيدهم رجساً إلى رجسهم فهم بمحتاجون إلى يقظة قلبية وهزة نفسية شديدة وتذكر قلبي عميق يوقظهم، فاستعمل (يذكرون) لذلك.

وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

وهذه الآية نظيرة آية التوبة السابقة ألا ترى أنه ذكر أن القرآن ما يريدهم إلا نفوراً، كما يزيد أولئك رجساً إلى رجسهم؟

وهذا أمر قلبي أيضاً، فهم محتاجون إلى تذكر قلبي يوقظهم، فاستعمل (يذكروا) كما استعمله فيما مر.

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَكْثَرُ الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

لقد ذكر في هذه الآية أناساً في قلوبهم زيف يبتغون الفتنة ولا يريدون الوصول إلى الحق وهؤلاء نظير أولئك من مرضى القلوب، فهم محتاجون إلى يقظة قلبية وإلى شفاء يشفي قلوبهم مما ألم بها من داء، وإن حاجتهم إلى إصلاح قلوبهم أكثر من حاجتهم إلى إصلاح عقولهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

وقوله: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَكَانَ يُصْلِحُونَ قَالُوا نَقَاسِمُوكَ بِأَلَلِهِ لَنُنَبِّئَنَّكَ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَنقُولَنَّ لَوَلِيَّهِ مَا شَهِدْنَا مِثْلَكَ أَهْلَهُ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٤٧-٥٠].

فقال في [يس]: (تطيرنا) وقال في النمل: (اطيرنا) ذلك أن التطير في النمل أشد مما في يس بدليل أنهم قالوا في [يس]: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ فهددوهم بالرجم والتعذيب.

أما في النمل فقد أقسموا وتعاهدوا على قتله وقتل أهله، ومعنى ذلك أن التطير بلغ عندهم درجة أكبر وأشد مما في يس، فجاء بما فيه زيادة مبالغة. ومن الإبدال قوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥٠].

وأصل (يَخِصِّمُونَ) يختصمون، فأبدلت التاء صادًا وأدغمت في الصاد، فصار (يَخِصِّمُونَ) والتضعيف يفيد القوة والتكثير والمبالغة كما ذكرنا، فأفاد ههنا المبالغة في الاختصاص، والمعنى أن الساعة تأخذهم وهم منهمكون في معاملاتهم منشغلون في خصومات الدنيا على أكثر ما يكون وأشد ما يكون غير منشغلين بشيء آخر عن الدنيا، فالساعة لا تقوم على رجل يقول: لا إله إلا الله، وفي الحديث: «شرار الخلق الذين تتركهم الساعة وهم أحياء» فتصبح الساعة صيحة تقطع الاختصاص، فلا يكون نبر ولا حركة ولا خصومة ولا كلام بل صمت مطبق وسكون مطلق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فعبّر عن ذلك بقوله: (يَخِصِّمُونَ) ولا يدل الأصل (يختصمون) على هذه المبالغة والقوة.

جاء في (البحر المحيط) في هذه الآية: "وهذه هي النفخة الأولى تأخذهم فيهلكون وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم في أماكنهم من غير إمهال لتوصية ولا رجوع إلى أهل. وفي الحديث: تقوم الساعة والرجلان قد شرا ثوبيهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم"^(١).

في حين قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] من غير إبدال، ذلك أن الاختصاص أمام رب العالمين لا يكون مثل الاختصاص في الدنيا، فالاختصاص في الدنيا عام يشمل المخاصمات التي تستدعي القضاء والفصل بين المتخاصمين كما يشمل غيرها مما لا يستدعي قضاء ولا فصلاً. أما الاختصاص عند الرب فهو مما يستدعي القضاء والفصل، فبالغ في البناء فيما استعمله في الدنيا بخلاف ما استعمله في الآخرة، والله أعلم.

٢- وقد يستعمل كلمة في موطن ثم يستعملها في موطن آخر مبدلاً فيها حرف، وذلك نحو مكة وبكة واللاتى واللائى وبسطة وبسطة ونحوها، وكل ذلك لغرض. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

فقال في آية آل عمران: (بكة) وقال في الفتح: (مكة) "وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فجاء بالاسم

(بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام لأنه في الحج يبك الناس بعضهم بعضاً، أى يزدحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكّة) لأنهم يزدحمون فيها (انظر مفردات الراغب، ٥٧).

وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور له، أعنى (مكة) بالميم فوضع كل لفظ في السياق الذى يقتضيه والله أعلم^(١).

ومن ذلك استعمال اللآتي والآني.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

وقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

وقال: ﴿وَاللَّائِي يَنسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

فقال فى كل ذلك (الآني) بالهمز.

فى حين قال: ﴿وَاللَّائِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاستَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ١٥].

وقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي تَحْتَظَمْنَ بِهِنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا

نَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَاجِنَاحٍ عَلَيْكُمْ وَحَلَّالٌ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» [النساء: ٢٣].

وقال: «وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَنِّي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» [يوسف: ٥٠].

وغيرها.

ومن الملاحظ في استعمال هاتين الكلمتين أنه استعمل (اللائي) بالهمزة في حالتى الظاهر والطلاق ولم يستعملها في غيرها، وكان ذلك لثقل الهمزة، فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة والنادرة وهي حالات المفارقة.

ومن الطريف أن بناء (اللائي) وجرسها يوحي بذلك، فكانها مشتقة من اللائ وهو الإبطاء والاحتباس والجهد والمشقة والشدة.

والمظاهر والمطلق محتبس عن امرأته مبطئ عنها، وفي ذلك ما فيه من الجهد والمشقة والشدة للطرفين، فانظر حسن المناسبة في اللفظ والمعنى والاستعمال.

ومن ذلك إبدال السين صاداً في لفظتى (بصطة) و(يبصط) أما كلمة (بصطة) بالصاد، فقد وردت في سورة الأعراف في قوله تعالى: «وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً» [الأعراف: ٦٩]، ووردت في سورة البقرة بالسين، وهو قوله تعالى: «وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» [البقرة: ٢٤٧] وقد ذكرنا في (التعبير القرآني) أن ذلك لأمر احصائي، وثمة أمر معنوي وهو أنها وردت بالسين في وصف طالوت: «قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» [البقرة: ٢٤٧].

ووردت بالصاد في وصف قبيلة عاد قوم هود، قال تعالى: «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ» [الأعراف: ٦٩].

وطالوت إنما هو شخص واحد، وأما عاد فهي قبيلة، ومن المعلوم أن الصاد أقوى من السين وأظهر^(١) فكان السين الذي هو أضعف أليق بالشخص الواحد والصاد الذي هو أقوى وأظهر أليق بالقبيلة.

وأما كلمة (يبسط) بالصاد، فقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وسائر ما في القرآن (يبسط) بالسين في أكثر من عشرة مواضع، وذلك أن البسط في آية البقرة مطلق عام لا يخص شيئاً دون شيء وفي غيرها مقيد، ولا شك أن البسط المطلق أقوى من المقيد، فهو يحتمل البسط في الرزق وفي الأنفس وفي الملك وغيرها، فجاء في الأقوى بالصاد وفي المقيد بالسين. جاء في (البرهان): "فنصل في حروف متقاربة تختلف في النطق لاختلاف المعنى".

مثل : «وزاده بسطة في العلم والجسم»، و «زادكم في الحق بسطة»، و «يبسط الرزق لمن يشاء»، و «والله يقبض ويبسط» فبالسين السعة الجزئية كذلك علة التقييد، وبالصاد السعة الكلية بدليل علو معنى الإطلاق وعلو الصاد مع الجهارة والإطباق^(١).

وجاء في (البحر المحيط) في قوله: «والله يقبض ويبسط»: "أي يسلب قوماً ويعطي قوماً، أو يقتل ويوسع، قاله الحسن، أو يقبض الصدقات ويخلف البذل مبسوطاً، أو يقبض أي يميت، لأن من أماته فقد قبضه ويبسط أي يحييه لأن من مد له في عمره فقط بسطه، أو يقبض بعض القلوب فلا تنبسط ويبسط بعضها فيقدم خيراً لنفسه، أو ليقبض بتعجيل الأجل ويبسط بطول الأمل، أو يقبض بالحظر ويبسط

(١) انظر الخصائص ١٦١/٢.

(١) البرهان ٤٢٩/١ - ٤٣٠.

بالإباحة، أو يقبض الصدر ويوسعه، أو يقبض يد مَنْ يشاء بالإِنفاق في سبيله ويبسط يد مَنْ يشاء بالإِنفاق... أو يقبض الصدقة ويبسط الثواب^(٢) وغير ذلك.

وجاء في (فتح القدير): "هذا عام في كل شيء فهو القابض الباسط والقبض التقدير، والبسط التوسيع"^(٣).

وقيل: يقبض الصدقة ويخلفها، وقيل: يبسط عليك وأنت ثقيل عن الخروج لا تريده ويقبض عن هذا وهو يطلب نفساً بالخروج ويخف له^(٤).

فأنت ترى مقدار الإطلاق في القبض والبسط ههنا بخلاف ما ورد في الآيات الأخرى، فإنه مقيد بالرزق في عشرة مواضع ومقيد بغيره في مواضع أخرى.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الروم: ٣٧].

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨].

فالبسط في غير آية البقرة مقيد كما ترى، فجاء للمقيد بالسين وللمطلق الذي هو أقوى وأعم بالصاد.

ومن ذلك إبدال الواو ياء والضممة كسرة، كما في (عَنَو) و (عَنَى) فقد استعمل مرة (عَنَو) ومرة (عَنَى) وذلك كما في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا﴾ [مريم: ٦٩].

(٢) البحر المحيط ٢/٢٥٣.

(٣) فتح القدير ١/٢٣٤.

(٤) انظر فتح القدير ١/٢٣٥.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُنْزِلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرِ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

فاستعمل (عتى) فى مريم و (عتو) فى الفرقان، وهما مصدران للفعل (عتا يعتو) والكثير (عتو)، وقد نرى أن ذلك للفاصلة فى مريم، إذ أن (عتيا) أنسب مع فواصل مريم، غير أن هذا الاختيار له دلالة أخرى، وذلك أن الواو كما هو مقرر أثقل وأقوى من الياء وإن الضمة أثقل وأقوى من الكسرة لما فيهما من الجهد العضلى، وعلى هذا فـ(عتو) أثقل من (عتى) وأقوى.

ومن النصين القرآنيين نلاحظ أن اتصاف المذكورين بالعتو فى الفرقان أشد مما فى مريم فاختار لهم اللفظ الأثقل والأقوى، وذلك:

- ١- أنه ذكر أنهم لا يرجون لقاء الله، أى هم ممن يكفرون باليوم الآخر.
- ٢- أنهم طالبوا ليؤمنوا إنزال الملائكة عليهم وهم لم يكتفوا بملك واحد فهم أشد كفرا ممن قال الله فيهم أنهم قالوا: ﴿لَوْنَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، فهم يريدون إنزال الملائكة لا ملك واحد، وإن الإنزال يكون عليهم لا إليه كما طلب الآخرون.
- ٣- فإن لم تنزل عليهم الملائكة فينبغى أن يروا ربهم ليصدقوا بالرسول وإلا فلن يصدقوا.

٤- ذكر أنهم استكبروا فى أنفسهم أى رأوا أنفسهم كبيرة.

٥- وذكر أنهم عتوا عتوا كبيرا، فأكد الفعل بالمصدر ووصفه بالكبر، فى حين قال فى آية مريم: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾، والمذكورون فى الفرقان هم من هؤلاء المذكورين فى مريم، بل من أشدهم.

٦- ذكر فى مريم أنه لينزع من كان أشد على الرحمن عتيا، فخص العتو على الرحمن فى حين أطلق العتو فى الفرقان ولم يقيد بشيء فهم عتاة على الرحمن وعلى خلقه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن العتو على الله لا ينال منه شيئاً بخلاف العتو على البشر، إذ ما قيمة العتو على الله وما أثره عليه؟
إنه تكبر مضحك، ولذلك جعل أخف العتوين ما كان خاصاً وأثقلهما ما كان عاماً، وهذا نظير ما مر في بصطة وبسطة، والله أعلم.



فَعَلَ وَأَفْعَلَ بِمَعْنَى

قد يرد في القرآن الكريم فعلَ وأفعل بمعنى واحد أو كأنهما بمعنى واحد، مثل: نَجَّى وَانجَى، وَنَبَأَ وَانْبَأَ، وَنَزَلَ وَانْزَلَ، وَنَحْنُ نَحَاوِلُ أَنْ نَتَلَمَّسَ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ.

إن (فَعَلَ) يفيد الكثير والمبالغة^(١) غالباً نحو قَطَعَ وَفَتَحَ وَكَسَرَ وَحَرَّقَ وَسَعَرَ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩١] فقال في ينبوع (تَفَجَّرَ) بالتخفيف، وقال في الأنهار (تَفَجَّرَ) بالتضعيف للكثرة، وقد يخرج هذا المثال — أعنى مثال فعل — عن التكرير إلى معانٍ أخرى كالتعدية، نحو: فرحته، والنسبة إلى أصل الفعل، نحو: فسقه وكفره، أى نسبه إلى الفسق والكفر وغير ذلك، من المعاني^(٢).

ومن مقتضيات التكرير والمبالغة في الحدث استغراق وقت أطول وأنه يفيد تلبثاً أو مكثاً، ف(قَطَعَ) يفيد استغراق وقت أطول من (قَطَعَ) و (فَتَّحَ) يفيد استغراق وقت أطول من (فَتَّحَ) وفي (عَلَّمَ) من التثبث وطول الوقت في التعلم ما ليس في (أَعْلَمَ) تقول: (أَعْلَمْتُ مُحَمَّدًا خَالِدًا مُسَافِرًا) ونقول: (عَلَّمْتَهُ الْحِسَابَ) ولا تقول: (أَعْلَمْتَهُ الْحِسَابَ) وكذلك عَوَّدَ وَقَوْمَ فَإِنْ فِي (قَوْمَ) من المبالغة في التقويم ما ليس في (أَقَامَ) فَإِنْ أَقَامَةَ الْجِدَارَ مَثَلًا لَا تَقْتَضِي مَبَالِغَةً وَتَلَبُّثًا كَتَقْوِيمِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧]، وَلَمْ يَقُلْ قَوْمَهُ، فَإِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَحْفَظَ مِنَ الْهَدْمِ بِأَقَامَتِهِ وَلَيْسَ قَصْدُهُ التَّمْوِيَةَ وَالتَّقْوِيمَ.

(١) انظر مفردات الراغب ٤٨١ (نبا)، بسانر ذوى التمييز ٢١٢/١ (نجى) ٤٣١/١ (نزل).

(٢) انظر شرح الرضى على الشافعية ٩٢/١ وما بعدها.

ومن الاستعمال القرآني لفعل وأفعل نحو (كَرَّمَ وأَكْرَم) فإنه يستعمل (كَرَّمَ) لما هو أبلغ وأدوم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] وهذا تكريم لبني آدم على وجه العموم والدوام، وقوله على لسان إبليس في ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنَا عَلَى﴾ [الإسراء: ٦٢] أى فضلته على، فى حين قال: ﴿كَلَّا بَلْ لَأَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَنَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥] وهو يقصد إكرامه بالمال.

فاستعمل التكريم لما هو أبلغ وأدوم وأعم.

وكاستعمال (أوصى) و (وصى) فهو يستعمل (وصى) لما هو أهم لما فيه من المبالغة فهو يستعمل (وصى) للأمور المعنوية والأمور الدين، ويستعمل (أوصى) للأمور المادية، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: ٨]، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا بَنِي إِسْرَافِيلَ بِتَيْبَةٍ وَيَعْقُوبَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فى حين قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، ولم يستعمل (أوصى) فى الأمور المعنوية وأمور الدين، إلا فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، وذلك لاقتران الصلاة بالزكاة.

ومنه استعمال (نزل وأنزل)، فقد ذهب جماعة إلى أن (أنزل) يفيد التدرج والتكرار، وأن الإنزال عام، وقيل: إن ذلك هو الأكثر وليس نصاً فى أحد المعنيين، قيل: "ولذلك سمى الكتاب العزيز تنزيلاً لأنه لم ينزل جملة واحدة، بل سورة سورة وآية، وليس نصاً فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَوَلَّا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جُمْلَةً

واحدة» [الفرقان: ٣٢] وقوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ﴾ [الشعراء: ٤] ^(١).

وجاء في (ملاك التأويل) في قوله تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأُنْزِلَ الْتُورَةُ وَالْإِنْجِيلُ﴾ [ال عمران: ٣]: "أن لفظ (نزل) يقتضى التكرار لأجل التضعيف، تقول (ضرب) مخففاً لمن وقع منه ذلك مرة واحدة، ويحتمل الزيادة، والتقليل أنسب وأقوى، أما إذا قلنا (ضرب) بتشديد الراء، فلا يقال إلا لمن كثر ذلك منه، فقوله تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ يشير إلى تفصيل المنزل وتنجيده بحسب الدواعي، وأنه لم ينزل دفعة واحدة، أما لفظ (أنزل) فلا يعطى ذلك إعطاء (نزل) وإن كان محتملاً، وكذلك جرى أحوال هذه الكتب، فإن التوراة إنما أوتيتها موسى ﷺ جملة واحدة في وقت واحد... أما الكتاب العزيز، فنزل مقسطاً من لدن ابتداء الوحي... وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وهو القرآن، ثم قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ والمراد التوراة ^(٢).

والذي يبدو أن استعمال (نزل) قد يكون للتدرج والتكثير، وقد يكون للاهتمام والمبالغة، كما في أوصى ووصى، فالتنزيل قد يستعمل فيما هو أهم وأبلغ من الإنزال... وقد تقول: وكيف يكون اللفظ الواحد لأكثر من معنى؟ فنقول: هذا كثير في اللغة، ومن ذلك في سبيل المثال (كفر يكفر) فقد يكون (كفره) بمعنى نسبه إلى الكفر، أى قال: هذا كافر، وقد يكون بمعنى (جعلته يكفر)

(١) شرح الرضى على الشافعية ٩٣/١.

(٢) ملك التأويل ١٤١/١ - ١٤٢.

ومنه قول عمر - رضى الله عنه - : (ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعواهم حقهم فتكفروهم) لأنهم ربما ارتدوا إذا منعوا من الحق^(١).

ومنه (ضعفه) فقد يكون بمعنى صيره ضعيفا، وبمعنى نسبه إلى الضعف^(٢).

ومنه (زكى) فقد يكون بمعنى نسب الشيء إلى الزكاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] أى لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصى ولا تثنوا عليها^(٣).

وقد يكون بمعنى (طهر) ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] أى من طهرها، وعلى هذا يصح أن نقول: (زكوا أنفسكم ولا تزكوها) أى طهروا أنفسكم ولا تمدحوها وتثنوا عليها بزكاء الأعمال، فإنه لا يزكى الأنفس إلا الله.

ومنه (استحل الشيء) فقد يكون بمعنى عده حلالا وبمعنى سأل أن يحله^(٤).

ومنه (استقام)، فقد يكون بمعنى اعتدل واستوى، وقد يكون بمعنى قوم ومنه (استقام المتاع)، أى قومه^(٥).

وغير ذلك.

فـ (نزل) يمكن أن يستعمل لأكثر من معنى، فإن هذا الفعل قد يكون للتدرج والتكثير كما ذكرت، وقد يكون للمبالغة والاهتمام، فما استعمل فيه (نزل) يكون أهم وأكد مما استعمل فيه (انزل).

(١) انظر لسان العرب (كفر).

(٢) لسان العرب (ضعف).

(٣) البحر المحيط ١٦٥/٨.

(٤) لسان العرب (حل).

(٥) لسان العرب (قوم).

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾

[الأعراف: ٧١].

وقوله: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠] أو [النجم: ٢٣].

وبالنظر في سياق هذه الآيات يتضح الفرق.

أن ما ورد في سورة الأعراف من المجادلة والمحاورة والتحدى أشد من المواطنين الآخرين، فقد قال في سورة الأعراف: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كان يعبدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاتَّظَرُّوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ فَأَنجِيَنَا وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَّعُوا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧١-٧٢].

في حين لم يكن الأمر في قصة يوسف كذلك، وإنما هو عرض لعقيدته عليه السلام قبل أن يؤول الرؤيا للفتيين، فقد قال: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَلَرَبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَلَرَبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]، ثم أول لهما الرؤيا.

وكذلك في سورة النجم، فإنه لم تكن المجادلة بتلك الشدة ولا بذلك التحدي، قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأُنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٣]، وانتهت المجادلة.

فلم يذكر رداً من جانب الكفرة في المواطنين، بخلاف ما في الأعراف الذي انتهى المشهد فيه بتدمير الكافرين وقطع دابرهم ونجاة المؤمنين.

فهم ردوا على نبيهم بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كان يعبدُ آبَاؤُنَا وَنَحْدُوهُ بِقَوْلِهِمْ﴾ ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وهو رد عليهم بقوله: «وقد وقع عليكم من حكم ربكم وغيظ أبجادوتني في أسماء.....» فما في الأعراف أشد، كما هو ظاهر فجاء بـ(نزل) المضاعف لذلك. ومن ذلك قوله تعالى: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [الأنعام: ٣٧].

وقوله: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ لَّوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

فقد قال في الأنعام «لولا نزل» وقال في العنكبوت «لولا أنزل» والذي يظهر من السياق أن الموقف في الأنعام أشد وأن موقف الكافرين أعنت، فقد قال تعالى: «وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» [الأنعام: ٢٥، ٢٦].

«وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حِيلَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ..... قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ..... وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ...» [الأنعام: ٢٩، ٣٧].

وقال في العنكبوت: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمُ الْوَحْيُ وَالْهَنَاءُ وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا تُرَتَّبَ الْمُنْطَلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

وَمَا يَجْعَلُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ﴿٥٠﴾
[العنكبوت: ٤٦-٥٠]

فالاختلاف بين المقامين واضح وأن موقف الشدة والمجادلة بالباطل والعنت والتكذيب في الأنعام أظهر وأوضح فاستعمل في الشدة وقوة المواجهة (نزل) كما في قوله: ﴿لَمَّا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

جاء في (ملاك التأويل) أنهم أتوا بالفعل (نزل) مضعفاً لما أرادوا من التأكيد^(١).

وجاء فيه أيضاً أن آية العنكبوت لم يتقدمها من التهديد وشديد الوعيد ما تقدم آية الأنعام فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعف^(٢).
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَتُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦].

فقال في الآية الأولى: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وفي الثانية: ﴿نَزَلَ اللَّهُ﴾.

ومن السياق يظهر الفرق بين التعبيرين.
قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضْلُ أَعْمَالُهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطُ أَعْمَالَهُمْ أَقَمُّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالْكَافِرِينَ أَتَمَّالَهَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٨-١١].

(١) ملك التأويل ٣٢١/١.

(٢) ملك التأويل ٣٢٢/١.

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَتِطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥-٢٩].

وبالنظر في الآيات يتضح أن الآيات الثانية أشد وأقوى في الهجوم على الكفر وأهله.

١- فإن الآيات الأولى تتكلم على الكافرين ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وهما آيتان وما بعد ذلك يكون الكلام على من قبلهم في حين أن الكلام كله في السياق الثاني على الكفرة...
٢- أنه قال في الآيات الأولى ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، و ﴿أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وقال في الآيات الثانية ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ و ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فالتهديد في الآيات الثانية أشد.

٣- أن صفات الكفر في الآيات الثانية أشد، فقد قال في الآيات الأولى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وذكر ﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ في حين ذكر في الآيات الثانية:
أ- أنهم ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وهؤلاء كفرهم أشد لأنهم ارتدوا بعد علم.

ب- أن الشيطان سول لهم وأملى لهم.

ج- أنهم سيطيعون الذين كرهوا ما نزل الله في بعض الأمور.

د- أنهم اتبعوا ما أسخط الله.

هـ- وكرهوا رضوانه.

و- أن في قلوبهم مرضاً.

ز- أنهم يبطنون الأضغان.

فاستعمل (نَزَلَ) لما هو أشد وأقوى، ومنه استعمل (نَجَّى) و (أَنْجَى) فإن الملاحظ أن القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نَجَّى) للتأنيب والتمهل في التنحية ويستعمل (أَنْجَى) للإسراع فيها، فإن (أَنْجَى) أسرع من (نَجَّى) في التخلص من الشدة والكرب، هذا وإن البناء اللغوي لكل منهما يدل على ذلك كما ذكرنا.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

فإنه لما كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتاً طويلاً ولا مكثاً استعمل (أَنْجَى) بخلاف البقاء مع آل فرعون فإنه استغرق وقتاً طويلاً ومكثاً فاستعمل له (نَجَّى).

ونحو قوله تعالى في سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، فإنه لم يذق حرها وإنما كانت برداً وسلاماً عليه فاستعمل (أَنْجَاه).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا تَجَاءَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ [الإسراء: ٦٦، ٦٧].

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكَ دَعَا إِلَهُهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَسَرْنُ بِهِمْ بَرِيحَ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا إِلَهُهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْبَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا

بَفَيْحُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»
[يونس: ٢٢، ٢٣].

فقال في آيتي الإسراء والعنكبوت (تَجَاكُم) و (تَجَاهُم) وقال في آية يونس (لنَجَاهُم) وذلك أن الأمر في يونس أشد، فإنه ذكر أن ريحا عاصفا جاءتهم وهم في الفلك وأن الموج جاءهم من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم، وأنهم عاهدوا الله لنز أنجاهم ليكونن من الشاكرين، ولم يتعهدوا في الحالتين الآخرين.

وهذه الحالة تتطلب الإسراع في نجاتهم وعدم المكث فيما هم فيه، فقالوا: «لئن أُنْجِيتنا من هذه»، وقال تعالى: «فلما أنجاهم».

أما في الإسراء فقد قال: «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ» فلم يحدد نوع الضر ولا شدته، فقد يكون خفيفا وقال: «وَإِذَا مَسَّكُمُ» ولم يقل (أصابكم) والمس أخف من الإصابة، فاحتمل ذلك المكث في البحر أكثر مما في يونس فقال (تَجَاكُم).

وأما في العنكبوت فلم يذكر أنه أصابهم مكروه أو مسهم ضر وإنما هي حالة خوف تعترى راكب البحر فيدعو لنفسه بالنجاة، فقال (تَجَاهُم).

فاستعمل (أنجى) للإسراع في النجاة، واستعمل (نَجَّى) لما فيه مكث وتمهل، ونحوه قوله تعالى: «يُبْصِرُوهُمْ يُؤَدُّ الْمَجْرِمُ لَوْ يَقْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِبَيْتِهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ» [المعارج: ١١-١٤]، أي يود لو يقتدي بكل شيء على أن لا يدخل لظى ولا يذوقها لهو لها فإنه لا يحتمل ورودها بله أن يصلاحها، فاستعمل (ينجيه) مضارع (أنجى).

وقد نقول: ولكن القرآن قد يستعمل في القصة الواحدة مرة (أنجى) ومرة (نَجَّى) كما في قوله تعالى في سيدنا نوح عليه السلام: «كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» [يونس: ٣٣].

وقوله مرة أخرى: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ»

وكما في قصة ثمود، فقد قال مرة: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

[فصلت: ١٨].

وقال مرة أخرى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣] وغير

ذلك.

فنقول. إن ذلك بحسب ما يقتضيه السياق والمقام، فقد يتطلب المقام ذكر الإسراع في النجاة فيستعمل (أنجى) وقد لا يتطلب ذلك فيستعمل (نجى)، وكل ذلك صحيح، فقد نستطيل أمراً وقد نستقصره بحسب المقام، فقد تقول في مقام (الدنيا طويلة) وقد تقول في مقام آخر (الدنيا قصيرة) ولكل مقام مقال، وإليك إيضاح الفرق بين ما ذكرت.

قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧، ١٨]

وقال في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ قَالَ يَا قَوْمِ إِنَّمَا تَسْعَجُلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ كُنَّا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَئِنْ صَلَّحُوا قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَعَكَ أَهْلَهُ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَاتَّظَرُّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٥٣].

وواضح من السياقين أن القصة ذكرت في النمل أكثر تفصيلاً وأن الموقف

فيها أشد مما في فصلت فقد ذكر فيها:

١- أنهم فريقان يختصمون.

٢- وأن الكفرة استعجلوا السيئة قبل الحسنة.

٣- وقالوا لنبيهم: ﴿أَطِرنَا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ﴾.

٤- وأنهم تقاسموا بالله على استئصاله واستئصال أهله.

٥- وأنهم مكروا لذلك وأعدوا خطتهم.

فاستدعى ذلك الإسراع في إنجائهم وتدمير أهل الباطل لأن الوقت لم يعد يحتمل الإرجاء، والإبطاء، فاستعمل (أتجى) لذلك، وليس المقام كذلك في [فصلت] فانه لم يذكر سوى أنه هداهم ولكنهم استحبوا العمى على الهدى، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّيْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [يونس: ٧٣]، وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]، فقد قال في يونس (فَجَبَّيْنَاهُ) وقال في الشعراء (فَأَنجَيْنَاهُ) وإليك بيان ذلك:

قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّيْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

وقال في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالُوا لَنَنْ لَّنْ لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَنَتَّكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٠].

وظاهر من السياق في القصتين أن القصة ذكرت في الشعراء بصورة أكثر تفصيلاً وأن الموقف أشد والمحااجة أطول والتهديدات أشد.

- ١- فقد وصفوا المؤمنين بأنهم أراذل: «أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ».
- ٢- وأنهم طلبوا طرد المؤمنين، فقال لهم: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ».
- ٣- وأنهم هددوه بالرجم إن لم يكف عن دعوتهم «لَنَن لَّمْ تُنْتَه يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ».

- ٤- وأن نوحاً شكاً إلى ربه تكذيب قومه له: «قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذِبُونَ».
- ٥- وأنه دعا بالنجاة له ولمن معه من المؤمنين: «فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، فاستدعى ذلك الإسراع في إنجائهم بخلاف ما في سورة يونس التي لم يكن فيها شيء من ذلك، وهذه القصة نظيرة ما ذكرناه في قصة صالح، ونحوه قوله تعالى: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» [البقرة: ٤٩].
وقوله: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» [الأعراف: ١٤١].
فقال في سورة البقرة (نَجَّيْنَاكُمْ)، وقال في الأعراف (أَنَجَّيْنَاكُمْ) ذلك أنه لم يذكر في سورة البقرة شيئاً من حالهم مع فرعون والمجتمع الذي يعيشون فيه سوى هذه الآية، أما في سورة الأعراف فقد أطل وفصل في حالتهم مع فرعون وقومه، ابتداء من الآية الرابعة بعد المائة إلى الآية الحادية والأربعين بعد المائة (من ١٠٤- ١٤١).

فإنه بعد أن ذكر مواجهة سيدنا موسى لفرعون ودعوته للإيمان وإظهار الآيات الدالة على صدقه ذكر شأنه مع السحرة وإيمانهم به وتهديد فرعون لهم. ثم ذكر قول المَلَأَ لفرعون: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَإِنَّكَ قَالَ سَتَقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ» [الأعراف: ١٢٧]، فاستمر الأذى على ما كان عليه قبل مجيء موسى وزاد حتى قال بنو إسرائيل لموسى: «قَالُوا أَوَإِذَا نَحْنُ نَقُتِّلُ الْكَافِرِينَ لَنَقُولَ لَهُمْ قَاتِلْهُمْ وَتَتَوَلَّى الْآيَاتُ الْكُبْرَىٰ» [الأعراف: ١٢٨].

مَا جِئْتَنَا» [الأعراف: ١٢٩]، وذكر أموراً تبين حالة التوتر والمعاناة التي يعيشونها في ذلك المجتمع مما لم يذكر في سورة البقرة، لقد ذكر في الأعراف ما ذكره في البقرة من الأذى وزاد عليه فاقضى ذلك الإسراع في إنجانهم، فقال في البقرة (نَجَى) وفي الأعراف (أُنْجَى) وهو نظير ما ذكرناه من الآيات السابقة.

ونظير ذلك ما ورد في سورة إبراهيم وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦]، فاستعمل (أنجاكم) لما زاد على ما في البقرة من العذاب، فإنه قال في البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

فإنه فسر سوء العذاب بقوله: ﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ في حين عطف تذبيح الأبناء على سوء العذاب في آية إبراهيم، فجعل تذبيح الأبناء أمراً آخر غير سوء العذاب^(١)، فلما زاد في العذاب اقضى ذلك الإسراع في الإنجاء، كما ذكرنا في الأعراف.

هذا إضافة إلى تذكيرهم بنعمة الله في نجاتهم، والتذكير بنعمة الله في (أُنْجَى) أبلغ من (نَجَى) لما فيه من الإسراع في النجاة وإن كان كل منهما من جليل النعم. فاتضح ما قلناه، والله أعلم.

المبنى للمجهول

لا نريد أن نبحث هنا المبنى للمجهول، فإننا ذكرنا كثيراً من أحواله وأمثله في كتابنا (معاني النحو) فلا نعيد القول فيه، وإنما عرض سؤالان في المبنى للمجهول:

أحدهما قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، ببناء الفعل (يُنْزَفُونَ) للمجهول، في حين قال في سورة الواقعة: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ببنائه للمعلوم.

فما السبب وهل يصح وضع أحدهما مكان الآخر؟
والآخر هو سبب بناء الفعل (طَبِعَ) للمجهول في قوله تعالى ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، وبنائه للمعلوم في قوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

أما الجواب عن السؤال الأول، فإن (يُنْزَفُونَ) بكسر الزاي له أكثر من معنى، فإن معنى (أَنْزَفَ يَنْزِفُ) نفذ شرابه ومعناه أيضاً ذهب عقله وسكر. ومعنى (يُنْزَفُ) بالبناء للمجهول ذهب عقله من السكر وهو من (نَزَفَ)، وجاء في (لسان العرب): "أَنْزَفَ الْقَوْمَ نَفَذَ شَرَابَهُمْ، الْجَوْهَرِيُّ: أَنْزَفَ الْقَوْمَ إِذَا أَنْقَطَعَ شَرَابُهُمْ... وَالْمَنْزُوفُ السَّكَانُ الْمَنْزُوفُ الْعَقْلُ وَقَدْ نَزَفَ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزُ: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ أَي لَا يَسْكُرُونَ.

قال الفراء: وله معنيان، يقال: (أنزف الرجل) فنى خمره، و (أنزف) إذا ذهب عقله من السكر، فهذان وجهان في قراءة مَنْ قرأ (يَنْزِفُونَ) وَمَنْ قرأ (يَنْزِفُونَ) فمعناه لا تذهب عقولهم، أى لا يسكرون^(١).

فمعنى الآية في الواقعة أن هذا الشراب لا ينفد ولا ينقطع وأنهم لا يسكرون عنه، ومعناها في الصافات أن هذا الشراب لا يذهب عقولهم فلا يسكرون عنه.

أما جواب السؤال الآخر هو: هل يصح وضع أحدهما مكان الآخر؟
فالجواب عنه أن كل مفردة إنما وضعت في مكانها المناسب من أكثر من وجه، ذلك أن سياق الآيات في سورة الواقعة إنما هو في السابقين المقربين وهم أعلى الخلق من المكلفين، قال تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مَّتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بَاكِبًا وَأَبَارِقُ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَخَوْرٍ عَيْنٍ كَأَمْثَالِ الْأُنثَى الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ١٠-٢٦].

وسياق الآيات في سورة الصافات إنما هو في المؤمنين المخلصين، قال تعالى: ﴿إِنَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مَّتَّابِلِينَ يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ بَيْضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٍ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٠-٤٩].

(١) لسان العرب (نزف) ٢٣٨/١١-٢٤٠، وانظر معاني القرآن ٣٨٥/٢.

والسابقون أعلى من هؤلاء. فإنهم أعلى الخلق من المكلفين، فإنه ليس كل مخلص من السابقين المقربين، وإن كل سابق مخلص، ولذلك نرى الجزاء مختلفاً.

١- فقد قال في الصافات: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ ففسر الرزق بالفواكه.

وقال في الواقعة: ﴿وَفَاكِهَةٌ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمُ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، فقد ذكر اللحم إضافة إلى الفاكهة، ثم ذكر أنهم يتخيرون الفاكهة واللحم، ولم يذكر في الصافات أنهم يتخيرون، بل قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ﴾ فما في الواقعة أعلى.

وقد تقول: ولم قال في الصافات (فواكه) وقال في الواقعة (فاكهة)؟ والجواب أن (الفاكهة) اسم جنس وهي أعم وأوسع من كلمة (الفواكه)، لأنه يشمل الحبة الواحدة والاثنتين والجمع ويشمل عموم الأنواع

فالتفاح الواحدة فاكهة وليست فواكه، والتفاحتان فاكهة وليستا فواكه، والتفاح فاكهة، وأنواع الفواكه كالتين والرمان والعنب بمجموعها يقال لها فاكهة، أما الفواكه فتقال للأنواع.

وأيضاً ذلك أنك تقول للتفاح وحده فاكهة وإن كثر ولا يقال له فواكه، فإن جمعت معه الرمان والتين والتمر صح أن يقال لها (فواكه) وأن يقال لها (فاكهة) أيضاً، فالفاكهة تطلق على النوع الواحد وعلى الأنواع وتقال للمفرد والمثنى والجمع، أما الفواكه، فلا تطلق إلا على ما تعدد ولا تطلق على الحبة الواحدة أو الحبتين ولا على النوع الواحد، فتكون الفاكهة أعم وأشمل ويُدْرَج تحت اسمها جميع الفواكه.

ولما قال في [الواقعة] ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ علم أنها أنواع كثيرة وليست نوعاً واحداً، ولذا يأتي القرآن بـ(الفاكهة) في مواطن السعة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالتَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١٠، ١١]، في حين قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾

فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْطَيْنَاكُمْ فِيهَا فَوَاحِشَ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿المؤمنون: ١٨، ١٩﴾.

فلما ذكر الأرض على العموم، قال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾، ولما ذكر الجنات في الأرض ذكر الفواكه، وذلك أنه خصص الفواكه التي في الجنات في حين إطلاقها في آية الرحمن.

٢- قال في الصافات: ﴿وَهُمْ مَكْرُمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وقال في الواقعة: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، فذكر أنهم مقربون في جنات النعيم وهو أعلى من مجرد الإكرام، لأنه يشمل الإكرام وزيادة.

٣- قال في الصافات: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، وقال في الواقعة: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَنَبِّهِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾، فذكر أن السُرر موضونة أي منسوجة بالذهب مشبكة بما يسر الناظر، ثم ذكر الاتكاء عليها للزيادة في النعيم، ولم يقل مثل ذلك في الصافات.

٤- قال في الصافات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾، وقال في الواقعة: ﴿يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مَخْلُودُونَ﴾، فلم يذكر الطائفين في آيات الصافات وذكرهم في الواقعة زيادة في التمتع.

٥- قال في الصافات: ﴿يَكُاسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾، وقال في الواقعة: ﴿يَكُوبُ وَأَبَارِيقُ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾، فزاد الأكواب والأباريق على الكأس، ولا شك أن تنوع الأواني إنما هو لتنوع الأشربة وتعددتها، فتتعم السابقين أعظم وأعلى.

٦- قال في الصافات: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾، وقال في الواقعة: ﴿لَا يَصْذَعُونَ عَلَيْهَا لَوْلَا يُنْزَفُونَ﴾، فذكر في الصافات أنها لا تفسدهم أو لا

تهلكهم أو لا تغتال عقولهم^(١)، ولا تسكرهم، وذكر في الواقعة أنهم لا يصيبهم منها صدام ولا يسكرون، وهذا الشراب لا ينفد، وهذا أتم وأعلى.

فإنه قال في الصافات ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ومعنى الغول الفساد أو الإهلاك أو اغتيال العقل وهو السكر، فإن كان بمعنى الفساد والإهلاك فإن نفيه لا ينفي ما دونه من الآفات، فإنك إذا قلت (هذا الشراب لا يميّت) فإنه لا ينفي أن يكون فيه بعض أنواع العلل دون الموت.

وأما في سورة الواقعة، فإنه نفى الأننى وهو الصدام فانتفاء الأكبر إنما هو من طريق الأولى، فإذا كانوا لا يصيبهم صدام، فمن الأولى أن لا يصيبهم منها الغول.

وعلى هذا فإن انتفاء الغول لا ينفي الصدام، وانتفاء الصدام يفي الغول، فيكون ما في الواقعة أعلى.

وإذا كان الغول بمعنى اغتيال العقول وهو السكر، فإنه نفى بقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يَنْزِفُونَ﴾ شيئاً واحداً عنها، فإن معنى (لا ينزفون) كمعنى (لا فيها غول) ولكن إحداهما صفة الخمرة والأخرى صفة شاربها.

وأما في الواقعة فإنه نفى عنها شيتين: الصدام والسكر، وهذا أتم، ثم إنه في الصافات نفى عنهم السكر، فقال: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يَنْزِفُونَ﴾ بفتح الزاي، أى لا يسكرون عنها.

وأما في الواقعة، فقد نفى السكر والنفاد، فقال: ﴿وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ بكسر الزاي، أى أن هذا الشراب لا يسكر ولا ينفد، فهذا أتم وأكمل.

٧- قال في الصافات: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾، وقال في الواقعة: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾، فذكر في الصافات

صفة واحدة من صفاتهن الجسمية وهي (عين) والعين جمع عيناء وهي الواسعة العين في جمال.

وذكر في الواقعة صفتين وهما (حور عين) والهور البيض، وقال في الصافات: «كأنهن بيض مكنون»، وقال في الواقعة: «كأمنال اللؤلؤ المكنون»، وأنت تحس الفرق بين تشبيه المرأة بالبيضة وتشبيهها باللؤلؤ المكنونة.

٨- وقال في الواقعة: «لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيل سلاماً سلاماً»، ففي سماع الردىء من القول والساقط منه، وأثبت الحسن وهو: «إلا قيل سلاماً سلاماً»، فكان التنعم بالنفى والإثبات. ولم يذكر مثل ذلك في الصافات، فناسب (ينزفون) بالبناء ما في الواقعة و (ينزفون) بالبناء للمجهول ما في الصافات.

ومما زاده حسناً قوله في الصافات: «يطاف عليهم بكأس من معين» بالبناء للمجهول، فناسب (ينزفون) بالبناء للمجهول، وقال في الواقعة: «يطوف عليهم ولدان مخلدون» بالبناء للفاعل، فناسب (ينزفون) بالبناء للفاعل.

فانظر يا أخى- هداك الله- كيف ذكر في الواقعة التكريب وهو يشمل الإكرام وزيادة، وذكر السرر وزيادة وهي أنها موضونة، وذكر التقابل وزيادة وهو الاتكاء، وذكر الطواف وزيادة، وهي الولدان المخلدون، وذكر الكأس وزيادة وهي الأكواب والأباريق، وذكر اللؤلؤ وزيادة، وذكر الحور العين، ونفى السكر، وزيادة وهي عدم النفاد، وزاد نفى اللغو والتأثيم وإثبات السلام.

فيما ترى أين نصلح كل من كلمتى (ينزفون) و (ينزفون) وأين تضعها أنت؟

وهل هذا كلام بشر؟ أو هو تنزيل رب العالمين؟

وأما الجواب عن السؤال الثانى، فإن إسناد الطبع إلى الله أشد تمكناً في القلب من بنائه للمجهول، فما أسند إليه صراحة يكون أثبت وأقوى مما لم يسند إليه، وعلى هذا فهو يسند الطبع إلى الله في مواطن المبالغة والتأكيد ويبنيه للمجهول فيها هو أقل

من ذلك، وذلك واضح في الايتين المذكورتين وهما قوله: «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» [التوبة: ٨٧].

وقوله: «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [التوبة: ٩٣]، وبالنظر في السياقين يتضح ذلك.

قال تعالى في سياق الآية الأولى: «وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنُوا أُولَئِكَ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» [التوبة: ٨٦، ٨٧].

وقال في سياق الآية الثانية: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ يَعْذَرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ سَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يُخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» [التوبة: ٩٣-٩٦].

فأنت ترى أن الآخرين أشد ضللاً وكفراً من الأولين بذلك على ذلك ما ذكره من صفاتهم وأحوالهم، فإنه لم يذكر في الأولين سوى أنهم يستأذنون الرسول إذا أنزلت سورة تأمر بالإيمان والجهاد وأنهم يقولون: «ذرنا نكون من القاعدين» وعقب على ذلك بقوله: «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ....» الآية، في حين ذكر من صفات الآخرين ما يدل على شدة كفرهم وضلالتهم و غضب الله عليهم ما لم يذكره في الأولين.

١- فقد طلب الله رد اعتذارهم إذا اعتذروا «قُلْ لَا تَعْذِرُوا».

٢- وطلب أن يخبروهم بعدم تصديقهم «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ».

٣- وأن يخبروهم بأن الله نبا المؤمنين بأخبارهم وأحوالهم «قد نبأنا الله من أخباركم».

٤- وطلب من المؤمنين ان يعرضوا عنهم «فاعرضوا عنهم».

٥- ووصفهم بأنهم رجس «إنهم رجس».

٦- وذكر عاقبتهم وسوء مآلهم في الآخرة «ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون».

٧- وطلب من المؤمنين ضمناً ألا يرضوا عنهم إذا ما حاولوا استرضاءهم، لأن الله غير راض عنهم «يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين».

فناسب ذلك إسناد الطبع إلى الله للدلالة على شدة تمكن الكفر في نفوسهم وقلوبهم بخلاف الآية الأخرى.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى انه مما حسن بناء الفعل للمجهول أيضاً في الآية الأولى ما قاله فيها: «وإذا نزلت سورة» ببناء (أنزل) للمجهول^(١)، فكما أنه لم يسند الإنزال إلى الله تعالى لم يسند الطبع إليه، فكان بناء الفعل للمجهول في الآية الأولى أنسب وبنائه للمعلوم في الآية الثانية أنسب، والله أعلم.

الوصف

لقد بحثنا في كتابنا (معاني الأبنية في العربية) وكتاب (التعبير والوصف القرآني) جملة صالحة مما يتعلق بالوصف، وذلك كالاختلاف بين صيغ المبالغة والصفة المشبهة وصيغ اسم المفعول نحو عسر وعسير وعجيب وعجاب وكفار وكفور وغيرها فلا نعيد القول فيه.

ونريد أن نبحث هنا نمطاً آخر مما لم نبحثه هناك.

١- قال تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فقد قال في الآية الأولى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ فما سر ذلك؟ ولم قال في الموضعين: ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ فنفي التشابه دون الاشتباه؟

لقد ذكر المفسرون أن اشتبه وتشابه بمعنى واحد كاختصم وتخاصم واشترك وتشارك واستوى وتساوى ونحوها مما اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل^(١)، والذي يبدو لنا انهما ليسا بمعنى واحد وأن كل لفظة اختصت بالموطن المناسب لها.

واليك كلاً من الآيتين:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَةً وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

(١) انظر البحر المحيط ١٩١/٤، الكشف ٥٢٠/١، روح المعاني ٢٤٠/٧.

ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين»
[الأنعام: ١٤١].

وبالنظر في سياق كل من الآيتين يتضح الفرق بين التعبيرين.

إن سياق الآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته الباهرة في خلقه.
قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ هَانِي تَوَفُّكُونَ فَأَتَقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْذَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»
[الأنعام: ٩٥-٩٩].

وأما سياق الآية الأخرى، ففي بيان الأطعمة وما يحلله ويحرمه أهل الفكر
افتراء على الله وبيان عقائدهم الباطلة.

قال تعالى: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرَدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْ مَيْتَةٍ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ قَدْ خَسِرَ

الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [الأنعام: ١٦٣-١٤١] ويستمر السياق.

فاتضح الفرق بين السياقين.

وقد اتسمت الآيتان كلتاهما بسمات السياق الذي وردت فيه كل آية منهما، فالآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته، والأخرى في بيان ما يؤكل، من الفواكه والزرع وإليك إيضاح ذلك:

١- قال تعالى في الآية الأولى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فبدأ بمرحلة ما قبل الإنبات ويَبَيِّنُ أنه تعالى هو الذي أنزل الماء من السماء، ولم يذكر ذلك في الآية الثانية.

٢- ذكر في الآية الأولى أنه أخرج به نبات كل شيء على وجه العموم ولم يخصه بنوع معين من أنواع النبات، وهو مما يدل على القدرة الباهرة، ولم يذكر مثل ذلك في الآية الثانية.

٣- ذكر في الآية الأولى أنه أخرج منه خضراً مشيراً إلى تسلسل عطية النمو والإنبات، ولم يذكر مثل ذلك في الآية الثانية.

٤- ذكر في الآية الأولى أنه أخرج منه حباً متراكباً، ولم يشر إلى الحبوب في الآية الثانية.

٥- أن المقصد الأول في الآية الأولى بيان قدرة الله البالغة - كما ذكرنا - فقال ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ فذكر طلوعها وقنوانها، في حين كان المقصد الأول في الآية الثانية ذكر المطعومات، فقال: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾

فذكر ما يؤكل من ثمار الزرع واختلاف أنواعه وطعومه ولم يشر إلى الطلع والقنوان.

٦- قال في الآية الأولى: «أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه» وهو نظير تدبر وتأمل، في حين قال في الآية الثانية: «كلوا من ثمره إذا أثمر» فأنت ترى أن كل تعبير مناسب لسياقه، وانظر من ناحية أخرى إلى تناسب قوله: «مختلفاً أكله»، مع قوله: «كلوا من ثمره إذا أثمر».

٧- قال في الآية الأولى: «إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون» وهي الآيات الدالة على قدرته وبديع صنعته، وقال في الآية الأخرى: «ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين»، فاتضح الفرق بين السياقين والاليتين.

ونعود الآن إلى أصل المسألة، وهو أنه لماذا قال في الآية الأولى: «مشتبهاً وغير مشتبه» وقال في الآية الثانية: «مشتابهاً وغير متشابه»؟

إن الفعل (اشتبه) أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال، وإن (تشابه) أكثر ما يفيد معنى التشابه بين الشينين أو الأشياء والمشاركة بينها في معنى من المعاني، سواء أدى ذلك إلى الالتباس أم لم يؤدي.

جاء في (القاموس المحيط): «تشابها واشتبهأ أشبه كل منهما الآخر حتى التباسا... وأمور مشتبهة ومشبهة كمعظمة مشكلة»^(١).

وجاء في (تاج العروس) أمور مشتبهة ومشبهة، كمعظمة أي مشكلة ملتبسة يشبه بعضها بعضاً^(٢).

(١) القاموس المحيط (الشبه) ٢٨٦/٤.

(٢) تاج العروس (أشبه) ٣٩٣/٩.

وجاء في (لسان العرب): اشتبه على وتشابه الشينان واشتبها أشبه كل واحد منهما صاحبه، وفي التنزيل: «مشتبها وغير متشابه»... وأمور مشتبهة ومشبّهة مشكلة يشبه بعضها بعضاً...

وشبّه عليه خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره... «وأوتوا به متشابهاً» فإن أهل اللغة قالوا معنى (متشابهاً) يشبه بعضه بعضاً في الجودة والحسن، وقال المفسرون. يشبه بعضه بعضاً في الصورة ويختلف في الطعم... أبو العباس عن ابن الأعرابي... قال وسألته عن قوله تعالى: «وأوتوا به متشابهاً» فقال: ليس من الاشتباه المشكل إنما هو من التشابه الذي هو بمعنى الاستواء.

وقال الليث: المشتبهات من الأمور المشكلات... واشتبّه الأمر إذا اختلط، واشتبّه على الشيء^(١).

وجاء في (المصباح المنير): "اشتبهت الأمور وتشابهت التنبهت فلم تتميز ولم تظهر، ومنه اشتبهت القبلية ونحوها... وتشابهت الآيات تساوت أيضاً... فالمشابهة المشاركة في معنى من المعاني والاشتباه الالتباس"^(٢).

فاتضح مما ذكرناه أن (اشتبه) أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال، كقولهم (اشتبهت عليه القبلة واشتبّه عليه الأمر).

وإن (تشابه) أكثر ما يفيد المشاركة في معنى من المعاني سواء أدى إلى الالتباس أم لم يؤد.

ومعلوم أن الذي يستطيع أن يشبه الأمور حتى تلتبس على الناظر أو المتأمل، فلا يميز بينها أقدر من الذي يقدر على أن يجعل مجرد تشابه بين شيئين، وأن الأمور المشبهة كلما دقت كانت أدل على القدرة والبراعة.

(١) لسان العرب (شبه) ٣٩٨/١٧.

(٢) المصباح المنير ٣٠٤.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الأمور المشتبهة تحتاج إلى زيادة نظر وتأمل لادراك حقيقة أمرها، فوضع (مشتبهاً) في السياق الدال على قدرته وآياته وفي موضع الأمر بالنظر «أنظروا إلى ثمره» دون الموضع الآخر مما ليس في هذا السياق، فكان كل تعبير أنسب في سياقه الذي ورد فيه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني وهو أنه: لم قال في الموضعين «وغير متشابه» ففي التشابه دون الاشتباه؟ فذلك لأن نفى التشابه ينفي الاشتباه ونفى الاشتباه لا ينفي التشابه، وإيضاح ذلك أنك إذا قلت (هذان الشيئان غير متشابهين) فقد نفيت التشابه بينهما ونفيت الاشتباه من باب أولى، وذلك لأن الاشتباه إنما يحصل من شدة التشابه بين الشيئين، فإذا نفيت التشابه زال الالتباس والاشتباه.

أما إذا (هذا الشيئان غير مشتبهين) فقد نفيت الاشتباه وعدم التمييز بينهما، ولكنك لم تنف التشابه، فقد يكون بينهما تشابه لا يوقع في اللبس، فلو قال في الآية الأولى (مشتبهاً وغير مشتبه) لكان نفى عنه الاشتباه ولم ينف عنه التشابه، فعلى هذا يمكن أن يكون النوعان متشابهين في وجه من الوجوه، فأراد أن ينفي ذلك، فقال: «وغير متشابه» وهذا أدل على القدرة فإن جعل الأشياء بعضها متشابه وبعضها

مختلف أدل على القدرة من جعلها كلها متشابهة أو جعلها كلها مختلفة، والله أعلم.

٢- قال تعالى: «كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ» [الحاقة: ٧]، وقال: «كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» [القمر: ٢٠]، فنذكر صفة النخل في آية القمر، فقال: «نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» وأنتها في الحاقة، فقال: «نَخْلٍ خَاوِيَةٍ»، فما سبب ذلك وهل يصح وضع إحداهما مكان الأخرى؟

لقد ذكر علماء العربية والمفسرون أن النخل اسم جنس يذكر نظراً للفظ ويؤنث نظراً للمعنى، وإنما وضع كل صفة بمكانها مراعاة للفاصلة^(١)، والذي أراه أن

ذلك مراعى فيه المعنى أيضاً وليس للفاصلة وحدها، وإن كانت الفاصلة تقتضى أن تكون كل لفظة بمكانها، إن العرب قد تونث للكثرة وتذكر للقلة، وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ و ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ فذكر (قال) لأن النسوة قلة وأنث (قالت) لأن الأعراب كثرة^(١)، وقد تونث للمبالغة نحو: راوية وداهية^(٢).

والنخل فى آية الحاقة أكثر منه فى آية القمر يدل على ذلك السياق، قال تعالى فى الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَلَاءُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال فى سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَلَاءُ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَتَنَزَّلُ أَنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنَزَّلُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٠]، ويتضح من سياق الآيات ما يأتى:

١- أنه قال فى القمر: ﴿أَنَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وقال فى الحاقة: ﴿بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، فزاد فى وصف الريح فى الحاقة فقال: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ فهى أشد مما فى القمر، وإذا كانت كذلك كان تدميرها أكبر وأبلغ واقتلاعها أكثر.

٢- قال فى القمر: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، وقال فى الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فذكر فى القمر أنه أرسلها عليهم فى يوم، وذكر فى الحاقة أنه سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام، فزاد فى وقت التدمير والعذاب، ولا شك أن طول المدة يفتضى تدميراً أكثر وأبلغ، فالريح تقتلع وتدمر فى سبع ليال وثمانية أيام أكثر مما تفعله فى يوم، فزاد فى النخل المقتلع فى الحاقة.

(١) انظر معانى القرآن ٤٣٥/١.

(٢) انظر شرح التصريح ٢٨٨/٢، شرح ابن يعيش ٩٨/٥، الهوامع ١٧٠/٢.

٣- ولما رابت الريح عتواً وأمداً في الحاقة ذكر أنها استأصلت منهم قثم قثم منهم أحداً، فقال: «فهل ترى لهم من باقية؟»، ولم يقل مثل ذلك في القمر.

٤- أن النخل المنقعر معناه المنخلع عن مغارسة الساقط على الأرض^(١)، ومعنى (خاوية) خربة^(٢)، وقيل: خلت أعجازها بلى وفساداً^(٣)، ومثل: "الخاوية معناها معنى المنقلع وقيل لها إذا انقلعت خاوية، لأنها خوت من منبتها التي كانت تنبت فيه وخوى منبتها منه"^(٤)، فالنخل الخاوية تشمل النخل المنقعر وزيادة فكل نخل منقعر هو خاو، وليس كل خاو منقعر، فأئت الخاوية، لأنه أكثر من المنقعر وإن سار به أبغ، وجعلها في سياق الدمار الشامل، ومن هذا يتبين:

١- أن الخاوي أكثر من المنقعر.

٢- أئت الخاوي، فقال (خاوية) فزاد كثرة ومبالغة، لأن التأنيث قد يأتي للكثرة والمبالغة.

٣- وضع النخل الكثير المدمر مع الريح المتصفة بزيادة التدمير وهي صفة العتو (ريح صرصر عاتية).

٤- ووضعه أيضاً مع زيادة وقت التدمير وهو سبع ليال وثمانية أيام بخلاف ما دمر في يوم.

٥- ووضعه مع استئصال القوم، فلم ينج منهم أحد.

فأنت ترى أنه لو لم تكن الفاصلة تقتضي ما وضع لاقتضاه المعنى، فزاد حسناً على حسن، فلا يصح وضع إحداهما مكان الأخرى، والله أعلم.

(١) انظر روح المعاني ٨٧/٢٧، البحر المحيط ١٧٩/٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤١٢، فتح القدير ٥/٢٧٤.

(٣) البحر المحيط ٣٢١/٨.

(٤) لسان العرب (خوى) ٢٦٩/١٨.

الإفراد والتثنية والجمع

قد يستعمل القرآن الكريم المفرد في موطن ويستعمل المثنى في موطن آخر يبدو شبيهاً بالأول، وقد يستعمل جمعاً في موطن ويستعمل جمعاً آخر للمفردة نفسها في موطن آخر، وقد يستعمل المفرد في موطن هو من مواطن الجمع، وما إلى ذلك من المواطن التي تستدعي التأمل والنظر.

١- فمن قوله تعالى: ﴿فَأْتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الشعراء: ١٦].

وقوله: ﴿فَأْتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٤٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦].

فقال في آية الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالإخبار بالمفرد عن

المثنى.

وقال في آية طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بالإخبار بالمثنى عن المثنى، وقال في

الزخرف: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالإخبار بالمفرد عن المفرد، وبالرجوع إلى

سياق الآيات يتضح سبب الاختلاف.

ففي سورة الشعراء ورد ذكر لهرود مع موسى، غير أن القصة مبنية على

الوحدة، لا على التثنية، فقد قال على لسان موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ

يَقْتُلُونِ قَالَ كُلَّا فَأَذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأْتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٢-١٧].

ثم ينتقل إلى الوحدة: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾

[الشعراء: ١٨]. ويستمر النقاش مع موسى وحده:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، ﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

ثم يوجه فرعون الكلام إلى موسى مهدداً له: ﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهاً غَيْرِي لِأَجَعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، قال له موسى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]، قال: ﴿قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١]، ﴿قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥].

في حين بنى الكلام في سورة طه على التثنية: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تُنِيَا فِي ذِكْرِي أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٤٢، ٤٣].

ويستمر الكلام على التثنية، والليك الفرق بين السياقين:

في الشعراء:

في طه:

﴿قَالَ رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا﴾
﴿أَوْ أَنْ يَطْفِئَ﴾
﴿قَدْ جِئْنَاكَ بَأْيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾
﴿أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾

﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ﴾
﴿أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾
﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾
﴿قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

فلما بنى الكلام في [طه] على التثنية قال: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بتثنية الرسول، ولما بنى الكلام في الشعراء على الوحدة مع إشارات إلى هارون قال: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بإفراد الرسالة وتثنية الضمير.

ولما لم تكن آية إشارة إلى هارون في الزخرف قاله بإفراد الضمير والرسول: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فجعل كل تعبير في موطنه الذي هو أليق به.

٢- ومن ذلك استعمال (طفل) و (أطفال) فهو يستعمل الطفل والأطفال للجمع، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥] وقال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] وقال: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

في حين قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْطِفْلُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٥٩]، فاستعمل الطفل والأطفال للجمع، فما سبب ذلك؟ ولماذا خص كل موطن بما استعمل فيه؟

إن العرب قد تستعمل كلمة (طفل) للمذكر والمؤنث المفرد والمثنى والجمع، فتقول: جارية طفل، وجاريتان طفل، وجوار طفل، وغلام طفل، وغلaman طفل، كما تستعملها على القياس، فتقول: طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال وطفلات^(١)، فاستعمل (الطفل) للجمع معروف عند العرب وبه جرت ألسنتهم، أما سبب تخصيص كل موطن بالاستعمال الذي ورد فيه فهذا يظهر من السياق.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرَّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥].

وقال في سورة غافر: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّى مِن قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وقال في سورة النور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَتَيْنَكُمُ الَّذِينَ مَكَتَ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور: ٥٨] ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

فقال في آية الحج: ﴿ثُمَّ نَخْرُجُكُمْ طِفْلاً﴾ وقال في آية غافر: ﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ في حين قال في آية النور: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ﴾ ذلك أن آيتي الحج وغافر تتكلمان على خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم علقه، فبنى الكلام على خلق الجنس وليس على خلف الأفراد، فلم يقل خلقتاكم من نطفة ثم من علقات، أو ثم من مضغات، بل بناء على المفرد الذي يفيد الجنس، والنطفة والعلقة والمضغة نخرج طفلاً لا أطفالا، فناسب ذلك التعبير بالجنس، فقال: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ في آية الحج، و﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ في آية غافر فكلتاها متشابهة، ومما زاد ذلك حسناً أن كلمة (طفل) تستعمل في كلام العرب للمفرد والجمع، فكانت أنسب من كل ناحية.

وأما آية النور فمبنية على الجمع لا على الأفراد ولا على الجنس وهي مبنية لعلاقات الأفراد في المجتمع فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَتَيْنَكُمُ الَّذِينَ مَكَتَ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾.

والذين لم يبلغوا الحلم هم الأطفال وليس طفلاً واحداً، ولذلك قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ﴾ بصيغة الجمع فناسب ذلك ما قبله ولا يناسبه الأفراد، لأن الكلام على الجمع.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن آية النور في الكلام على العلاقات الاجتماعية وهذا يتطلب مجتمعا لا فرداً فناسب الجمع أيضاً.

وقد نقول: إنك ذكرت أن كلمة (طفل) قد تكون للجمع، فلماذا كانت كلمة (أطفال) أنسب ههنا؟

والجواب أن كلمة (طفل) قد تكون للمفرد وهي في المفرد أشهر منها في الجمع، في حين أن سياق آية النور ليس فيه احتمال إفراده، فناسب التعبير موطنه من كل ناحية.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَمَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّالِبِينَ غَيْرِ أُولَئِكَ الْبَرَّةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

ونود هنا أن نسجل الملاحظات الآتية:

١- أن كلمة (الطفل) اسم جنس، فهو يشمل كل الأطفال، تقول (الطفل لا يعي) وتقصد به عموم الأطفال، وبهذا المعنى يكون أشمل من الجمع فإنك إذا قلت (لا أطفال في الدار) لا تنفي أن يكون فيها طفل أو طفلان، فإن قلت (لا طفل في الدار) نفيت عموم الجنس، الواحد والاثنتين والجمع.

٢- أن كلمة (طفل) قد تصف بها العرب الواحد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث كما ذكرنا، فبهذا المعنى تشمل الواحد والاثنتين والجمع المذكر والمؤنث.

٣- أن كلمة (طفل) في الآية أشمل وأعم من جميع المذكورين، ذلك أن البعل مختص بالمرأة فهو يخص واحداً بعينه والآباء كذلك، وكذلك أبو البعل وأبناء البعل وأبناء المرأة وكذلك الباقي، فإنه إما مختص بأقرباء المرأة أو ملك يمينها.

أما الطفل فهو عام غير مختص بقرابة، بل يشمل جميع الأطفال فناسب استعمال الجنس لأنه يراد به العموم.

٤- أن المذكورين في الآية أشخاص متعددون الإحساس والمواقف بالنسبة إلى الجنس والزينة، فكل واحد له إحساس خاص به، وأما الأطفال الذين لم يظهروا على

عورات النساء فموقفهم واحد متجانس وهو عدم التمييز، فكانهم شخص واحد لا تمايز بينهم فأفردهم وجعلهم كأنهم شخص واحد.

فكان الأفراد ههنا أنسب، والله أعلم.

٥- ومن ذلك استعمال (بنى) و (أبناء) فهو يستعمل مرة (بنى)، ومرة (أبناء)، وذلك نحو قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بُنَىٰ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بُنَىٰ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

وقوله في سورة الأحزاب: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥].

وههنا سؤالان:

الأول: لم قال في آية النور: ﴿وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ وقال: ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فاستعمل مرة (بنى) ومرة أبناء؟

والسؤال الثاني: لم قال في آية الأحزاب: ﴿وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ ولم يقل: ﴿وَلَا بَنَىٰ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا بَنَىٰ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ كما قال في النور؟

والجواب عن السؤال الأول ان لفظة (بنى) تدل على الكثرة وأنها تشمل أكثر مما يشمله الأبناء نحو بنى آدم وبنى إسرائيل، ولذلك يستعمل القرآن (بنى آدم) لمجموع البشر، و (بنى إسرائيل) لهؤلاء القوم على مر العصور، ولم يستعمل أبناء آدم ولا أبناء إسرائيل.

وبنو الإخوان وبنو الأخوات هم أكثر المذكورين في الآية، فإن الإخوان قد يكونون إخواناً أشقاء، وقد يكونون إخواناً من الأم، وقد يكونون إخواناً من الأب، وحكم هؤلاء جميعاً واحد فيما ذكر.

وكذلك الأخوات فانهن قد يكن أخوات شقائق وقد يكن أخوات لأم وأخوات لأب وحكم أبناء هؤلاء جميعاً واحد أيضاً.

وهؤلاء أكثر من أبناء المرأة وحدها وأكثر من أبناء البعولة وحدهم، فاستعمل (أبناء) لما هو أقل، و (بنى) لما هو أكثر، جاء في (روح المعاني): "والمراد بالإخوان ما يشمل الأعيان وهم الأخوة لأب واحد وأم واحدة، وبنى العلات، وهم أبناء الرجل من سنة شتى. والأخفاف، وهم أولاد المرأة من أباء شتى، ونظير ذلك في الأخوات، واستعمل (بنى) معهم دون (أبناء) لأنه أوفق بالعموم وأكثر استعمالاً في الجماعة ينتمون إلى شخص مع عدم اتحاد صنف قرابتهم فيما بينهم، ألا ترى أنك كثيراً ما تسمع بنى آدم وبنى تميم، وقلما تسمع أبناء آدم وأبناء تميم.

وفيما نحن فيه يجتمع للمرأة ابن أخ وشقيق وابن أخ لأب وابن أخ لأم، بل قد يجتمع لها أبناء أخ شقيق أو أخوة أشقاء أعيان وبنو علات وأبناء أخ أو أخوة لأب وأبناء أخ أو أخوة لأم كذلك.

ويتأتى مثل ذلك في ابن الأخت، لكن لا يتصور هنا بنو العلات، كما لا يتصور في أبناء^(١) الأخ الأخفاف والاجتماع في أبنائهن وأبناء بعولتهن إن اتفق، لكنه ليس بتلك المثابة".

أما الجواب عن السؤال الثاني، وهو أنه لم قال في آية الأحزاب: ﴿وَلَا أَبْنَاءُ أَخَوَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: (بنى أخواتهن) أو (بنى أخواتهن)، كما قال

(١) روح المعاني ١٤٢/٨-١٤٣.

في آية النور، فذلك لأن آية الأحزاب في نساء النبي، فأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن أقل مما في آية النور، فاستعمل لذلك (أبناء)، والله أعلم.

٤- ومن ذلك استعمال النخل والنخيل، فقد يستعمل القرآن أحياناً (النخل) ويستعمل أحياناً (النخيل) وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله: ﴿وَالنَّخْلُ بِأَسْفَلِ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

في حين قال: ﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١].

وقال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] فما الفرق بينهما؟

لقد ذهب السهيلي إلى أن كلمة (النخيل) تفيد الكثرة، وذلك لأنها تتناول الصغير والكبير، أما النخل فهو خاص بالثمر، وعلى هذا يكون النخل أقل عدداً من النخيل.

جاء في (البرهان): "قال السهيلي في (الروض الأثف): إذا قلت: عبيد ونخيل فهو اسم يتناول الصغير والكبير من ذلك الجنس، قال تعالى: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وحين ذكر المخاطبين منهم، قال (العباد)، ولذلك قال حين ذكر المتمر^(١) من النخيل: ﴿وَالنَّخْلُ بِأَسْفَلِ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾، و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنْقَعَرٍ﴾ فتأمل للفرق بين الجمعين في حكم البلاغة واختيار الكلام"^(٢).

والذي أراه العكس فإن النخل أكثر من النخيل، وذلك أن النخل اسم جنس جمعي والنخيل جمع، واسم الجنس أشمل وأعم من الجمع، كما قرره علماء اللغة،

(١) في البرهان: الثمر، وما أثبتناه أشبه بالصواب.

(٢) البرهان ٢١/٤.

وكما هو في الاستعمال القرآني، ذلك أن اسم الجنس يشمل المفرد والمثنى والجمع ويقع على القليل والكثير، فيصح أن يقول من أكل ثمرة واحدة: (لقد أكلت التمر)، ولا يصح أن يقول: (أكلت تمرتين ولا تمرات ولا تموراً) ويصح أن يقول من شاهد نخلة واحدة أو نخلتين: (لقد شاهدت النخل)، ولا يقول: (شاهدت النخيل ولا النخلات).

جاء في (شرح الرضى على الشافية): "اعلم أن الاسم الذي يقع على القليل والكثير بلفظ المفرد فإذا قصد التنصيص على المفرد جيء فيه بالتاء يسمى باسم الجنس

وأما المعنى فلقوع المجرى من التاء منه على الواحد والمثنى أيضاً، إذ يجوز لك أن تقول: أكلت عنباً أو نفاحاً مع أنك لم تأكل إلا واحدة أو اثنتين، بل قد يجيء شيء منه لا يطلق إلا على الجمع، وذلك من حيث الاستعمال لا من حيث الوضع كالكلم والأكم وهو قليل، فنقول: مثل هذا الاسم إذا قصدت إلى جمع قلته جمعته بالالف والتاء، وإذا قصدت الكثرة جردته من التاء، فيكون المجرى بمعنى الجسم الكثير نحو: نملة ونمل ونملات^(١).

وجاء في (شرح الرضى على الكفاية): "ويخرج أيضاً - يعنى عن الجمع - اسم الجنس، أي الذي يكون الفرق بينه وبين مفردة بالتاء، نحو: ثمرة وتمر، أو بآباء نحو رومي وروم، وذلك لأنها لا تدل على أحاد اللفظ إذ اللفظ لم يوضع للأحاد، بل وضع لما فيه الماهية المعينة، سواء كان واحداً أو مثنى أو جمعاً. إن اسم الجنس يقع على القليل والكثير فيقع (على)^(٢) التمرة والتمرتين والتمرات وكذا الروم، فإن أكلت ثمرة أو تمرتين وعاملت رومياً أو روميين جاز لك

(١) شرح الرضى على الشافية ١٩٢/٢-١٩٦.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

أن تقول: أكلت التمر وعاملت الروم، ولو كانا جمعين لم يجز ذلك كما لا يقع رجال على رجل ولا رجلين^(١).

وأما ما ذكره السهيلي في (الروض الأنف) ففيه نظر من حيث اللغة ومن حيث الاستعمال القرآني، فإن الله كما قال: «وما ربك بظلام للعبيد» قال: «وما الله يريد ظلماً للعباد» وكما قال: «والنخل باسقات لها طلع نضيد» فذكر المثمر فإنه قال: «ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل» وهو مثمر أيضاً، وقال: «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخزون منه سكرًا ورزقًا حسنًا» فالنخيل يقال له للمثمر وغيره وكذلك النخل.

أما الفرق بينهما فما ذكرناه وهو أن النخل أعم وأشمل من النخيل لأنه اسم جنس جمعي، وهذا ما قرره علماء اللغة ويؤيده الاستعمال القرآني، يدل على ذلك أن القرآن أورد (النخيل) في ثمانية مواضع وهي فيها لا تفيد الشمول.

فقد قال: «أَيُّودُ أَحْذَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ» [البقرة: ٢٦٦].

وقال: «أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا»

[الاسراء: ٩١]

وقال: «فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحٍ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا

تَأْكُلُونَ» [المؤمنون: ١٩].

وقال: «وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ»

[يس: ٣٤].

فأنت ترى في هذه الآيات الأربع أنه جعل النخيل في جنات فلا يشمل ما في

غير الجنات فلا تدخل فيها النخلة الواحدة أو النخلتان وقليل النخل.

(١) شرح الرضی علی الشافیه ١٨٧/٢.

وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٌ مِّنْ أَشْجَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلٌ بِغَضَبٍ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤].

فقال: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾، فخرج ما لم يسق بماء واحد.
وقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، فخرج منه ما لم يتخذ منه السكر.

أما النخل فهو عام يشمل الصغير والكبير المثمر وغيره، سواء كان في جنات أم في غيرها وسواء كانت نخلة واحدة أو أكثر.
قال تعالى في وصف الجنة: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، ونخل الجنة كثير كثير.

وقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨].

والنخل ههنا يشمل ما في الجنات وغيرها.
وقال: ﴿وَالْأَرْضُ مَوْضِعُهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١٠، ١١].

وهو يشمل جميع النخل سواء كان في جنات أم لم يكن.
وقال: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعٍ﴾ [القمر: ٢٠].
وقال: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].
وقال: ﴿وَنُلَاقِبُنْكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].
وقال: ﴿وَالنَّخْلُ بِاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

فانت ترى أنه لم يخصص النخل بشيء، فهو أعم من النخيل وأشمل، وقد تقول: ولكن القرآن قد يستعملها استعمالاً واحداً، وذلك نحو قوله تعالى في سورة النحل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

يَنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» [النحل: ١٠، ١١].

وقوله في سورة عبس: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلَبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا» [عبس: ٢٤-٣١].

فاستعمل النخل والنخيل لما يخرج من الأرض على وجه العموم ولم يخصص النخيل بشيء.

والحق أن السياق مختلف وأن (النخل) في عبس أكثر من (النخيل) في النحل وإليك ما يوضح ذلك:

١- أنه قال في النحل: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»، وقال في عبس: «أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا»، والصب أكثر من الإنزال علاوة على أنه أكد به بقوله: «صَبًّا».

٢- جعل الماء في النحل للشراب والشجر، فقال: «لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ» في حين خصص الماء في عبس للطعام ولم يذكر الشراب، فالماء المعد للزراعة في عبس أكثر فإنه لم يخصص قسماً منه للشرب، بل جعله للطعام خاصة.

٣- ثم إن المنتوجات في عبس أكثر، فقد ذكر في النحل: الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، وذكر في عبس الحب والعنب والفضب والزيتون والنخل والحدايق الغلب، وهي الملتفة الكثيرة الشجر والفاكهة والأب، فلما زاد في الماء المخصص للزرع في عبس زادت المنتوجات في النوع والكمية.

٤- ذكر النخيل والأعناب بصورة الجمع في النحل، وذكر النخل والعنب بصورة اسم الجنس الجمعي في عبس وهو أكثر.

٥- قال في النحل: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.... يَنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ» بإسناد الفعل إلى ضمير الغيبة، وقال في عبس: «أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا

الأرض فأنبتنا» بإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم، وهذا يقتضى الزيادة فى التفضل على الإنسان فيما ذكر.

٦- ثم انظر كيف انه لما زاد فى الكمية والأنواع فى (عبس) جاء بضمير الجمع، فقال: (أنا. صبينا. شققنا. فأنبتنا)، وجاء بضمير الأفراد فى (النحل)، ونحو ذلك قوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتَ وَحَبِّ الخَصِيدِ وَالنَّخْلَ بِأَسْفَاطٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ» [ق: ٩-١١]، فاستعمل (النخل) فى آية [ق] ولم يستعمل (النخيل) كما فى النحل.

ويتضح سبب ذلك من النظر فى الآيتين:

١- فقد أسند إنزال الماء فى [ق] إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم (ونزلنا) فى حين أسنده إلى ضمير الغائب كما أسلفنا، والإسناد إلى المتكلم يقتضى زيادة التفضل والإحسان.

٢- قال فى النحل (أنزل) وقال فى [ق] (نزلنا) بالتضعيف للدلالة على الكثير فالماء فى [ق] أكثر.

٣- قال فى النحل: «هو الذى أنزل من السماء ماء»، وقال فى (ق): «ونزلنا من السماء ماء مباركاً»، فوصف الماء فى [ق] بأنه مبارك ولم يصفه بذلك فى النحل، والمبارك هو الكثير الزائد فإن البركة هى النماء والزيادة^(١)، فما فى النحل يصدق على الإنزال القليل والكثير بخلاف فى [ق].

٤- جعل الماء فى النحل للشراب والشجر والزرع فى حين خصه فى [ق] بالإنبات، فجعل الماء الكثير للزرع خاصة، وهذا يقتضى زيادة المنتوجات الزراعية فى [ق] على ما فى النحل ومن هذه المنتوجات النخل، وهذا نظير ما ذكرناه فى النحل وعبس.

(١) انظر لسان العرب (برك) ٧٥/١٢، القاموس المحيط (البركة) ٢٩٣/٣.

هـ- لقد قسم الماء في النحل على ثلاثة أشياء: الشراب وما يأكله الإنسان وما يأكله الحيوان، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أى ترعون ماشيتكم، وقال: ﴿يَنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ وهو عام يأكله الإنسان والحيوان، فى حين جعل الماء الكثير فى [ق] لما يأكله الإنسان، فقال: ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾.

وهذا يقتضى زيادة المنتوجات من هذا النوع من الزرع، فكان ما فى [ق] أكثر، فلما ضاعف فى التنزيل وأسند إلى نفسه وبارك فى الماء وخصه بإنبات ما يأكله الإنسان زاد فى الإنتاج فى [ق] فقال: ﴿وَالنَّخْلَ بِأَسْقَاتٍ﴾ بصيغة اسم الجنس الجمعى.

ولما يقل مثل ذلك فى النحل، قال: ﴿وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ فذكر النخل فى مواطن التكاثر.

فدل ذلك على أن النخل أعم وأشمل من النخيل، ثم أنظر كيف أنه لما كان المقام فى سورة [ق] مقام ذكر الزينة والجمال، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٦، ٧]، فذكر زينة المساء وبهجة الزرع فى الأرض ذكره جمال النخل، فقال: ﴿وَالنَّخْلَ بِأَسْقَاتٍ﴾ وهو صورة جميلة من صورة النخل، ثم وصف ثمرها بقوله: ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ وهى صورة جمالية أخرى فناسب بين الصورة والمقام.

ولا نريد أن نطيل فى هذا الأمر، وإلا فالكلام فيه يطول.

الحركة غير الإعرابية

وردت في القراءة المشهورة كلمات محرّكة بغير الحركة المألوفة المشهورة وذلك نحو قوله تعالى: «وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ» [الفتح: ١٠]، وقوله: «وَمَا أُنْسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» [الكهف: ٦٣]، بضم الهاء من (عليه) و (أنسانيه) مع أن المشهور في نحو هذا كسر الهاء، قال تعالى: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» [الشعراء: ١٠٩]، وقال: «وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ» [التقصير: ١١].

ويحسن أن نشير هنا إلى أن ضم الهاء في نحو هذا لغة الحجاز، وأما غيرهم فيكسرها، جاء في (شرح الرضى على الكافية): "وحركة هاء المذكر ضمة إلا أن قبلها ياء أو كسرة، فإن كان قبلها أحدهما فأهل الحجاز يبقون ضممتها ويقولون (بهو) و (لديهو) وغيرهم يكسرونها"^(١).

والقرآن نزل في هذا بلغة سائر العرب.

وهنا يعرض سؤال، وهو لماذا ورد في هذين الموطنيين الصم دون الكسر؟ وينبغي لنا قبل أن نجيب عن السؤال أن نشير إلى حقيقة لغوية معلومة اتفق عليها علماء اللغة قديماً وحديثاً، وهي أن الضمة أقوى الحركات وأثقلها ثم تليها الكسرة ثم تليها الفتحة وهي أخف الحركات^(٢).

وقد يسبق إلى الوهم أن الكسرة أثقل من الضمة لما سمعوه وتعلموه من قواعد كتابة الهمزة أن الكسرة أقوى الحركات بالنسبة إلى رسم الهمزة ثم الضمة ثم الفتحة.

(١) شرح الرضى على الكافية ١١/٢، وانظر الهمع ٥٨/١-٥٩.

(٢) انظر التصريح ٥٩/١.

ف نقول: إن هذا أمر إملائي لا علاقة له بالنطق ولا علاقة له بالحقيقة اللغوية الثابتة.

إن النطق بالضممة يحتاج إلى جهد عضلي أكثر من الكسرة والفتحة، وذلك لأنها لا تنطق إلا بانضمام الشفتين وارتفاعهما ولا تحتاج الكسرة ولا الفتحة إلى ذلك^(١) كما هو ظاهر ومعلوم.

وهذه الحقيقة تفسر كثيراً من الظواهر اللغوية في الأبنية والتأليف^(٢).

ونعود إلى مسألتنا لنرى سر التعبير في نحو ما مر.

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، فقال: (عليه) فجاء بالضممة التي هي أثقل الحركات للدلالة على ثقل هذا العهد وعظمه، وذلك من جملة أنواع منها:

أ- أنه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ وهذه البيعة كانت يوم الحديبية وكانت بيعة على الموت في نصرة الرسول^(٣) ونصرة دينه، والبيعة على الموت أشد وأثقل أنواع البيعات وأقواها.

ب- وقال: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ وهذا تعظيم لهذه البيعة التي يكون فيها الله هو الطرف المبايع.

ج- وقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهذا تأكيد لما قبله وتوثيق لأمر هذه البيعة العظيمة.

(١) انظر التصريح ٥٨/١.

(٢) انظر في سبيل المثال: المحتسب لابن جنى ١٨٨/٢-١٩، معاني الأبنية في العربية ١٠٠-١٠٢.

(٣) انظر روح المعاني ٩٧/٢٦.

د- حذر من نكت هذه البيعة ونقض هذا العهد، وقال: إن ضرر نكته يعود على الناكت نفسه.

هـ- وذكر أن من أوفى بهذا العهد سيؤتيه الله أجراً عظيماً، فهو كما ترى عهد عظيم ثقیل، فناسب أن يأتي بأثقل الحركات وهي الضمة مجانسة لثقل هذا العهد. ثم إن الضمة ينطق معها لفظ الجلالة بتفخيم اللام بخلاف الكسرة، فإنها ينطق معها لفظ الجلالة بترقيق اللام، فجاء بالضم ليتفخم النطق بلفظ الجلالة إشارة إلى تفخيم العهد فناسب بين تفخيم الصوت وتفخيم العهد، وهو تناظر جميل. جاء في (روح المعاني) في هذه الآية: "وقرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء كما هو شائع وضمها حفص..."

وحسن الضم في الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه^(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا أُنْسَانِيَّةٌ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أُنْكَرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، بضم هاء (أنسانية)، والمشهور في نحو هذا الكسر، كما ذكرنا.

وهذا في الحوت الذي تزوده سيدنا موسى وقتاه وهما يبحثان عن الرجل الصالح.

فقد أمر الله موسى أن يتزود حوتاً مالحاً، فحيث يفقده فهناك يجد الرجل، وهذا الحوت على ما جاء في صحيح مسلم حوت مملح^(٢)، وقيل: هو حوت مشوي، وفي رواية أنه كان يصيبان منه حاجتهما إلى الطعام^(٣).

(١) روح المعاني ٩٧/٢٦.

(٢) صحيح مسلم ١٠٥/٧.

(٣) انظر روح المعاني ٣١٤/٢٥، فتح القدير ٢٨٧/٣.

والظاهر من سياق الآيات أنه كان مشوياً بدليل قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً فتاه: ﴿أَتَيْنَا غَدَاةَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٣] فهذا يدل على أن الحوت كان جاهزاً لأن يؤكل.

غير أن هذا الحوت المملح المشوى المأكول منه سرت فيه الحياة واتخذ سبيله في البحر والفتى ينظر إليه، وكان عند جريه ينعقد فوقه الماء فيكون كالنفق والحوت يجري في داخله، وإليك قول الله فيه:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لِمَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْتُغِ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاةَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتَ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٠-٦٣].

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿فاتخذ سبيله في البحر سربراً﴾ أي: "مسلكاً كالسرب وهو النفق، فقد صح من حديث الشيخين والترمذي والنسائي وغيرهم أن الله تعالى أمسك عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، والمراد به البناء المقوس كالقنطرة"^(١) وهذا المشهد من أعجب العجب، وفيه أمران كل منهما يدعو إلى عجب أكبر من صاحبه.

الأمر الأول: أن يحيا حوت مشوى مأكول منه.

والثاني: أن يجري في البحر فينعقد فوقه الماء كأنه الطاق، حيث جرى فيكون له كالنفق.

جاء في (فتح القدير): "﴿قال أريت إذ أوينا إلى الصخرة﴾ أي قال فتى موسى لموسى، ومعنى الاستفهام تعجيب لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع

كون ذلك الأمر مما لا ينسى، لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة... والتقدير أرأيت ما دهاني أو نابني في ذلك الوقت والمكان... «واتخذ سبيله في البحر عجباً» وموضع التعجب أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثر جريته في الماء لا يمحو أثرها ماء البحر»^(١).

وهذا المشهد لا ينسى على مر الأزمان، فكيف ينسى بعد لحظات فإن هذا من أقوى مواطن النسيان وأغربها وأعجبها فعدل في التعبير من الكمر إلى أقوى الحركات وهي الضمة للإشارة إلى ندرة مثل هذا النسيان وقوته، فناسب بين قوة النسيان وقوة التعبير، وندرة مثل هذا النسيان وندرة مثل هذا التعبير، جاء في (روح المعاني): "وضم حرف الهاء في (أنسانيه) وهو قليل في مثل هذا التركيب قلة النسيان في مثل هذه الواقعة... وفي إثبات أن والفعل على المصدر نوع مبالغة لا تخفى"^(٢).

١- قوة الحركة وهي الضمة مناسبة لقوة النسيان.

٢- ندرة هذه الحركة في مثل هذا الموطن مناسبة لندرة النسيان في مثل هذا الموطن، والله أعلم.

٣- قال تعالى: «وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً» [آل عمران: ١٢٠]، بضم راء (يضرركم) اتباعاً لضمة الضاد والمشهور في نحو هذا فتح الراء أو فك الإدغام والجزم، كقوله تعالى: «مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ» [المائدة: ٥٤]، وقوله: «وَمَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ» [البقرة: ٢١٧].

جاء في (البحر المحيط): "وقرأ الكوفيون وابن عامر (لا يضرركم) بضم الضاد والراء المشددة من ضر يضر... وقرأ عاصم فيما روى أبو زيد عن المفضل

(١) فتح القدير ٢٨٨/٣.

(٢) روح المعاني ٣١٨/١٥.

عنه بضم الضاد وفتح الراء المشددة، وهي أحسن من قراءة ضم الراء، نحو لم يرد زيد، والفتح هو الكثير المستعمل^(١).

وقوله: إن فتح الراء أحسن من قراءة ضم الراء فيه نظر، نعم إنه أشهر وأكثر ولكن ليس أحسن وكيف تكون أحسن وهي ليست قراءة متواترة، فهي ليست من القراءات السبع ولا العشر بخلاف هذه القراءة، فإنه قرأ بها أربعة من القراء السبعة، وهم عاصم وحزمة بن حبيب الزيات والكسائي وابن عامر إضافة إلى أبي جعفر من العشرة^(٢).

أنه ليس لأحد أن يفضل قراءة غير متواترة على متواترة، بل ليس له أن يفضل قراءة متواترة على أخرى متواترة، نعم إن له أن يختار لا أن يفضل، فإن القراءات المتواترة كلها ثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتاً قطعياً لا تردد فيه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن لقراءة الضم وجهاً حسناً في أداء المعنى في هذا الموضوع، ذلك أن الضمة أثقل من الفتحة كما ذكرنا.

والقراءة بالفتح في هذا الموضع تشير إلى أنه ليس ثمة شيء من الضرر بصيبيهم، وأما القراءة بالضم فكذلك، إلا أن فيها إشارة إلى ثقل الحالة التي هم فيها، وأنه وإن لم يضرهم الكيد إلا أنهم قد ينالهم الأذى، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، أي تصبروا على أذاهم ومضايقتهم على طاعة الله وتتقوا المحرمات وأسباب الوهن ومنافذ أعداء الله مما يدل على أن ثمة أذى قد يصيبهم، جاء في (روح المعاني): "إن تصبروا على

(١) البحر المحيط ٤٣/٣.

(٢) انظر النظر ٢٤٢/٢.

أذاهم أو على طاعة الله تعالى ومضض الجهاد في سبيله (وتتقوا) ما حرم عليكم لا يضركم كيدهم أو مكرمهم^(١).

وجاء في (البحر المحيط) في هذه الآية: "قال ابن عباس وإن تصبروا على إذاهم وتتقوا الله ولا تقتطوا ولا تسأموا إذاهم وإن تكرر"^(٢).

فالقراءة بالفتح تشير إلى أن ليس ثمة شيء من ذلك يصيبهم وإلى تهوين أمرهم.

أما القراءة بالضم فتشير إلى أن هذه الحالة أثقل وأشق من الأولى، فهي تحتاج إلى مراقبة وصبر وتقوى، وإنهم مع ذلك قد ينالهم الأذى والمكارة، فالقراءة بالفتح تخفف الأمر وتهونه وذلك لخفة الفتحة، والقراءة بالضم تشدده وفيها إشارة وتوجيه إلى ضرورة الحزم والصبر ليستعدوا لما قد ينالهم من الأذى وإن كان أخير أن الكيد لا يضرهم.

فكان للضمة وجه حسن، والله أعلم.

(١) روح المعاني ٤/٤٠-٤١.

(٢) البحر المحيط ٣/٤٣.

تعاور المفردات

قد تتعاور المفردات في التعبير القرآني فتستعمل مفردة في موطن وتستعمل غيرها في موطن آخر شبيه به، بل في القصة الواحدة قد تستعمل مفردة في موضع وتستعمل غيرها في موضع آخر مع أن القصة واحدة والموقف واحد وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَاتَفَجَّرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] في سورة البقرة في سورة الأعراف: ﴿فَاتَبَجَّسْتَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ والانفجار بالماء أغرز من الانبجاس^(١)، فخالف بين المفردتين مع أن القصة واحدة والموضوع واحد. وكقوله تعالى: ﴿قَالَ آيَتِكَ أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ في سورة مريم، قال: ﴿وَآيَتِكَ أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ في آل عمران، فمرة قال: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ ومرة قال: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ إن القصة واحدة، وهي قصة سيدنا زكريا عليه السلام والليالي غير الأيام.

وكقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣] في البقرة، وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ في النساء، في حين قال في الأعراف: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبِلَ فَوْقَهُمْ﴾، فاستعمل (الطور) في البقرة والنساء غير أنه استعمل لفظ (الجبل) في الأعراف والقصة واحدة، ونحو ذلك كثير في القرآن الكريم، وقد ضربنا أمثلة لذلك في كتاب (التعبير القرآني).

إن الذي نريد أن نوضحه هنا أن ذلك ليس تناقضاً ولا اختلافاً، بل إن ما ذكره في الموضعين حق حتى لو اختلف معنى المفردتين، ذلك أن المذكور قد يكون عاماً في موطن وخاصاً في موطن آخر، وقد تكون له حالتان فيذكر حالة في موطن ويذكر حالاً أخرى في موطن آخر، وقد يكون الأمر عاماً فيذكر جزءاً منه في

(١) انظر: معترك الأقران ٨٧/١-٨٨، نورة التنزيل ٢٠١٤، البرهان للكرمانى ٨٨-٨٩.

موطن ويذكر الجزء الآخر في الموطن الآخر وهكذا، وكل ذلك بحسب ما يقتضيه السياق والمقام، كما سنبين ذلك.

٣- قال في سورة البقرة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠] فجمع لهم بين الأكل والشرب، ولم يرد في الأعراف ذكر الشرب فناسب ذلك أن يبالغ بذكر الانفجار بالماء في البقرة.

٤- إن الله أسند القول إلى نفسه في سورة البقرة، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، في حين بنى القول للمجهول في الأعراف، فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

وإسناد القول إلى نفسه يكون في مقام التكريم والتشريف بخلاف البناء للمجهول^(١)، فناسب في مقام التكريم ذكر الانفجار بالماء دون الانبجاس.

٥- إن القصة في البقرة وردت في مقام تعداد النعم على بنى إسرائيل وفي مقام تكريمهم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

في حين أن المقام في سورة الأعراف مقام تقريع وتأنيب على ما فعلوه وارتكبوه من مآثم، فناسب في مقام تعداد النعم والتكريم ذكر حالة الانفجار دور الحالة الأخرى، والله أعلم.

فذكر في كل مقام ما يقتضيه من التعبير وكلاهما حق لا مزية فيه، ومن ذلك استعمال الطور والجبل مع إن القصة واحدة.

قال تعالى في البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال في النساء: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَكُنَّا لَهُمُ الْبُشْبُشَةَ سَجْدًا وَكُنَّا لَهُمُ لَا تَعْبُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].
في حين قال في الأعراف: ﴿وَإِذَا نَقَّتَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُنُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

فاستعمل (الطور) في آيتي البقرة والنساء، واستعمل (الجبل) في آية الأعراف، ذلك أن التهديد في آية الأعراف أشد فاستعمل لفظ (الجبل) لذلك فإن (الجبل) اسم لما طال وعظم من أوتاد الأرض^(١)، ولا يشترط في الطور ذلك، فالجبل أعظم من الطور، ولذلك يجيء في مقام الشدة والهيول وبيان المقدرة العظيمة اسم (الجبل) وذلك نحو قوله تعالى في قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَايَ وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فانظر كيف اختار لفظ الجبل على الطور للدلالة على عظم التجلي وأثره، ولذلك أيضاً ذكر لفظ الجبال دون الأطوار في مقام التهويل والتعظيم والدلالة على القدرة التي لا تحد، فقال: ﴿لَمْ نَجْعَلِ اِلَآلَٰهَ اِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦، ٧]، وقال: ﴿وَالْجِبَالُ اَرْسَآهَآ مَتَاعًا لِّكُمْ وَلِأَعْمَٰكُمُ﴾ [الزمر: ٣٢، ٣٣].

وقال في القيامة: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، وقال: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٩]، ففيها من الدلالة على العظم ما ليس في اسم الطور^(٢).
ولذلك استعمل (ننقتا) مع (الجبل) ولم يستعمل (رفعنا) لما في النثق من التهديد الشديد والتخويف "فإن النثق أشد وأقوى من الرفع، ذلك أن معنى النثق هو

(١) لسان العرب (جبل) ١٠٢/١٣.

(٢) انظر كتاب (الجملة العربية تاليها وأقسامها) بحث التقديم والتأخير.

الجنب والزعزعة والاقتلاع، ومعناه أيضاً هو أن يقلع الشيء فيرفعه من مكانه ليرمى به هذا هو الأصل^(١)، في حين أن الرفع ضد الوضع.

فأنت ترى أن في نتق الجبل من الغرابة والقوة والإخافة والتهديد ما ليس في رقع الطور، فإن يززع الجبل ويقلع من مكانه ويرفع يرمى به كأن هناك قاذفاً يقذف به عليهم أمر مرعب ومخيف وفيه من القوة والشدة ما ليس في رفعه... إلا ترى لو أن شخصاً رفع حجارة من الأرض وتهاها لضرب شخص ماء، ألم يكن ذلك أكثر تهديداً وإخافة من مجرد رفع الحجارة من الأرض^(٢).

فاستعمل (الجبل) بدل (الطور) و (نتقنا) بدل (رفعنا) لأن المقام يقتضى ذلك، فإنه أفاض في ذكر صفات بنى إسرائيل الذميمة ومعاصيهم في الأعراف ما لم يفضه في سورتي البقرة والنساء فافتضى أن يكون كل تعبير في مكانه.

ومن ذلك في سبيل المثال قوله تعالى في البقرة: «فَاتَفَجَّرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا» [البقرة: ٦٠]، وقوله في الأعراف: «فَاتَبَجَّسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا» [الأعراف: ١٦٠]، فقد تقول: إذا كان الانفجار أكثر وأغرز من الانبجاس، فلم قال مرة (اتفجرت) وقال مرة أخرى (اتبجست) وما حقيقة الأمر هل انفجرت العيون بالماء أم اتبجست؟

والجواب أن كلا الأمرين حصل فقد انفجرت أولاً بالماء الكثير — كما قيل — ثم قل الماء بمعاصيهم فأخذ ينبجس فذكر حالة الانفجار في موطن وحالة الانبجاس في موطن آخر، كما ذكرنا في (التعبير القرآني)^(٣)، فالأمران واقعان وكلاهما

(١) لسان العرب (نتق).

(٢) انظر كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) بحث التقديم والتأخير.

(٣) انظر التعبير القرآني ٢٨٦.

حقيقة، غير أنه ذكر حالة كل منهما تبعاً لما يقتضيه السياق ولو غير بينهما فاستعمل الانفجار مكان الانبجاس لكان خلاف الأولى وخلاف ما يقتضيه السياق والمقام. وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

فقد ذكر في سورة مريم أنه لا يكلم الناس ثلاث ليال، وذكر في آل عمران أنه لا يكلم الناس ثلاثة أيام، والأيام غير الليالي، فإن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها والليل، ما يقابل النهار، فما حقيقة الأمر أو لا يكلمهم ثلاثة أيام أم ثلاث ليال؟ والجواب أن كلا الأمرين حقيقة، فهو لا يتمكن من أن يكلم الناس ثلاثة أيام بليالهن، فمرة ذكر الأيام، ومرة ذكر الليالي، وكل ذلك صحيح ولا تناقض، غير أنه ذكر الليالي في موطن والأيام في موطن لسبب اقتضاه المقام، كما سنبين ذلك.

ومثل ذلك ما استعمله في الطور والجبل، فإن الطور جبل غير أن اختيار كل لفظة كان لسبب اقتضاه المقام، وهكذا كل ما ورد بلفظتين مختلفتين في القصة الواحدة أو الموقف الواحد فإن كل ذلك حقيقة ليس ثمة تناقض أو اختلاف بين الأمرين إلا أن اختيار لفظ على آخر في كل موطن له سببه.

هذا قول نقوله على سبيل الإجمال.

واليك مزيداً من الإيضاح والتفصيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَتَنَجَرَّتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَتَنَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فقال في البقرة: (فاتفجرت) وقال في الأعراف: (فاتهجست) كما ذكرنا، وقد ذكرنا في (التعبير القرآني) هذه القصة وما ورد منها في سورتي البقرة والأعراف، وذكرنا أوجه الاختلاف بينهما وتعليل ذلك وأشرنا إلى أسباب التعبير بالانفجار والانجاس وغير ذلك من مواطن الاختلاف^(١).

ولا نريد أن نعيد ما ذكرناه هناك، غير أنا نقول على سبيل الاختصار والإيجاز انه عبر بالانفجار في سورة البقرة والانجاس في سورة الأعراف لجملة أسباب منها والله أعلم.

١- أن موسى هو الذي استسقى في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٦٠]، فناسب إجابته بانفجار الماء، في حين ذكر في سورة الأعراف أن قومه هم الذين استسقوا موسى: ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ والحالة الأولى أكمل فناسب إجابته بانفجار الماء دون الثانية.

٢- قال في سورة البقرة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠] أي أن الله قال ذلك لموسى قولاً في حين ذكر في الأعراف أن الله أوحى إلى موسى بذلك وحياً، ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ والحالة الأولى أكمل وأتم، فإن القول الصريح من الله أكمل وأقوى من الوحي فناسب ذلك ذكر الانفجار في البقرة والانجاس في الأعراف.

ومن ذلك قوله تعالى في زكريا عليه السلام في سورة آل عمران: ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

فقال في آل عمران: «ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» وقال في مريم: «ثَلَاثَ لَيَالٍ»، واليوم هو يقابل الليل، قال تعالى: «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا» [الحاقة: ٧]، "ومقداره من طلوع الشمس إلى غروبها..."

وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً ومنه الحديث: «تلك أيام الهرج» أي وقته^(١)، ودل من ذكر الليالي في مريم والأيام في آل عمران أن زكريا عليه السلام لا يتمكن من أن يتكلم الناس ثلاثة أيام وليالهن^(٢) من دون علة أو مرض في حين أنه يستطيع أن يذكر الله ويسبحه في نفسه، فذكر الليالي في آية مريم وذكر الأيام في آل عمران. وقد نقول: وما سبب هذا التخصيص؟

والجواب: أن ذلك يتضح من سياق الآيات في كل من الموضعين. قال تعالى في سورة آل عمران: «هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَصِيِّ وَالْإِبْرَارِ» [آل عمران: ٣٨-٤١].

وقال في سورة مريم: «ذَكَرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ

(١) لسان العرب (يوم) ١٣٦/١٦-١٣٨، تاج العروس (يوم) ١١٥/٩.

(٢) الكشف ٢٧٥/٢.

مِنَ الْكَبِيرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا
قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا [آل عمران: ٢-١١].

ولو نظرنا في هذه الآيات لوجدنا أن المقابلة لم تختص بهذا الموطن، وإنما
هي ظاهرة في مواطن أخرى من النصين وكأنهما لوحان فنيان متقابلتان وإليك
طرفاً من هذا التقابل:

- ١- قال تعالى في آل عمران: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ وقال في مريم: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾.
- ٢- قدم مانع الذرية من جهة نفسه في آل عمران وهو الكبير على المانع من
جهة زوجه وهو العقر، فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرَ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ في حين قدم المانع
من جهة زوجه في مريم فقال: ﴿وَكَاثَبْتُ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.
- ٣- ذكر في آل عمران أن الكبير أدركه وبلغه، فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرَ﴾
فالكبير فاعل وضمير المتكلم مفعول به، في حين ذكر في مريم أنه هو الذي بلغ
الكبر، فهو فاعل، فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، ومعنى (بلغني الكبر) أثر في
الكبر فأضعفني وأسند البلوغ إلى الكبير توسعاً في الكلام، كأن الكبير طالب له^(١)
يجري خلفه حتى أدركه وبلغه.
- ٤- ذكر في آل عمران أن امرأته عاقر وذكر في مريم أن امرأته كانت
عاقرًا بزيادة لفظ (كان).
- ٥- قدم العشى على الإبرار في آل عمران: ﴿وَسَبِّحْ بِالعَشَى وَالْإِبْرَارِ﴾ وقدم
البكرة على العشى في مريم، فقال: ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.
- ٦- عرفهما بال في آل عمران: ﴿بِالعَشَى وَالْإِبْرَارِ﴾ وذكرهما في مريم،
فقال: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

(١) انظر الكشف ٣٢٢/١، البحر المحيط ٤٥٠/٢، روح المعاني ١٤٩/٣.

٧- طلب في آل عمران من زكريا الذكر والتسبيح، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشَى وَالْأُبْحَارِ﴾، وفي مريم طلب زكريا من قومه أن يسبحوا ولم يذكر أنه طلب منه ذلك.

وهناك مقابلات أخرى.

فكان المشهدين متقابلان تقابل الليل والنهار، ثم إن اختيار الليل في مريم يقتضيه سياق الفصاة وجوها، وكذلك اختيار اليوم في آل عمران، فقوله تعالى: ﴿إِذَا نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ حسن ذكر فيه من ظلمة بخلاف النهار فإنه يفيد الظهور والإظهار.

ومما حسن ذلك أيضا ذكر شيخوخته وضعفه، وهما أشبه شيء بالليل وما فيه من سبات وسكون وقلة حركة، وإذا كان لنا أن نقابل بين حال الإنسان والزمان فإن الشباب والعافية أشبه شيء بالنهار وما فيه من حركة، وإن الشيخوخة والضعف أشبه شيء بالليل وما فيه من سكون.

فذكر شيخوخته ووهن عظمه مع الليل، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا..... وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي مبلغ النحول والضعف، ومعنى (العتي) المبالغة في الكبر ويبس العود^(١) ولم يذكر مع الأيام إلا قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ﴾ فما ذكره في مريم أنسب مع ذكر الليل.

ثم إنه أشار في مريم إلى طلبه وريثا يرثه بعد موته ويث من آل يعقوب، فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ أي بعد موتي، والموت ليل طويل وسبات ممتد، وفي الأكثر (النوم أخو الموت) وفي التنزيل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وهذا أقرب إلى الليل وذكره والصق به من ذكر النهار، ولم يذكر مثل ذلك في آل عمران حيث ذكر الأيام.

وهناك أمر آخر يتجلى من هذين النصين وهو:

أن البشارة بيحيى فى آل عمران أكمل وأعظم مما فى مريم، ذلك أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيٍّ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فوصفه بقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أى مصدقاً بعباسى وسيداً، وحصوراً، وهو الحاصر نفسه عن الشهوات وعن المعاصى^(١).

ونبيّاً، من الصالحين، أى "ناشئاً من الصالحين لأنه كان من أصلاب الأنبياء أو كائناً من جملة الصالحين، كقوله: ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢) فى حين لم يقل فى سورة مريم إلا: ﴿إِنَّا نَبْشُرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

ولعظم البشارة وكمالها اقتضى ذلك عظم الشكر وكماله:

١- فقال فى آية آل عمران: ﴿آيَتِكَ أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ وقال فى مريم: ﴿آيَتِكَ أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ واليوم أبين من الليل فى ظهور هذه الآية، ذلك أن الليل يمضى كثير منه فى النوم، فزكريا عليه السلام لابد أن ينام فيه والناس أيضاً ينامون، فالتسبيح والعبادة فى الليل أقل مما فى النهار.. ومخاطبة الناس ومخالطتهم فيه أقل، فالآية فى اليوم أطول وأظهر.

٢- أنه فى آل عمران طلب من زكريا عليه السلام أن يذكر به ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾، فى حين طلب زكريا من قومه فى سورة مريم أن يسبحوا ولم يذكر أنه طلب منه التسبيح، وتسبيحه هو أدل على شكره.

٣- أنه طلب منه أن يذكر ربه كثيراً فى آل عمران ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ وهذا شكر مناسب لعظم البشارة.

(١) انظر البحر المحيط ٤/٨٤٤، وانظر تفسير البضاوى ٧٣.

(٢) الكشف ٣٢٢/١.

٤- أنه طلب منه الجمع بين الذكر الكثير والتسبيح «واذكر ربك كثيراً وسبح»، وهذا مناسب لعظم البشارة.

٥- لما قدم في آل عمران المانع من جهة نفسه ناسب أمره هو بالذكر والتسبيح وأن يقوم به هو، ولما قدم في مريم المانع من جهة غيره (وهو الزوج) ناسب ذكره غيره بالتسبيح وهم قومه.

وهناك سبب دعا إلى تقديم المانع من جهة نفسه في آل عمران وتقديم المانع من جهة زوجه في مريم ذلك أنه قال في آل عمران «وامرأتى عاقراً» وقال في مريم «وكانت امرأتى عاقراً» والعقر قد يحصل عن الكبر والهرم أو عن عارض، وقد يكون ذلك طبيعة، جاء في (فتح القدير) في قوله: «وكانت امرأتى عاقراً» "العاقرة هي التي لا تلد لكبر سنها والتي لا تلد أيضاً لغير كبر وهي المرادة هنا"^(١)

وفي (المصباح المنير): "عقرت المرأة... انقطع حملها فهي عاقرة"^(٢). وفي (لسان العرب): "بيضة العقر... قبل هي آخر بيضة تنبضها [أي الدجاجة] إذا هرمت... ويقال كان ذلك بيضة العقر معناه كان ذلك مرة واحدة لا ثانية لها"^(٣). فقوله: «وامرأتى عاقراً» يفيد أن هذا شأنها حال الإخبار عنها، وربما لم تكن كذلك قبلاً.

وأما قوله: «وكانت امرأتى عاقراً» فيفيد أن هذا وصفها منذ شبابها، فالعقر وصف مستحكم فيها وليس عارضاً، فتكون الولادة في مثل هذا أبعد وأعجب، جاء

(١) فتح القدير ٣/٣١١.

(٢) المصباح المنير (عقر) ٤٢١.

(٣) لسان العرب (عقر) ٢٧٢/٦-٢٧٣، وانظر (أساس البلاغة) عقر ٦٤٦.

في (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير: "وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها"^(١).

فقدم ما هو أبعد وأدعى إلى العجب في مريم بخلاف ما في آل عمران.
٦- لما ذكر الليل في آية مريم «ثلاث ليال» ناسب ذلك تقديم البكرة على العشى، لأن البكرة أول النهار وهي من الفجر إلى طلوع الشمس^(٢)، أو إلى الضحى^(٣)، والعشى من بعد الزوال إلى غروب الشمس، أي من وقت صلاة الظهر إلى المغرب^(٤)، ولا شك أنه بعد الليل تأتي البكرة ثم العشى، فأراد أن لا يذهب من الوقت شيء في غير الطاعة والتسبيح، فقال: «بكرة وعشيا» ولو قال (عشيا وبكرة)، لكانت البكرة الأولى مضت من دون تسبيح فكان تقديم البكرة وهنا أتم وأولى.

ولما ذكر اليوم في آل عمران «ثلاثة أيام» كان تقديم العشى أولى، لأن بكرة ذلك اليوم قد مضت وبقي العشى، فلا بد من ابتدائه للتسبيح والذكر فيه، فلو قدم البكرة أيضاً لذهب عشى اليوم الأول من دون تسبيح وذكر، فيه قد ذهب البكرة والعشى، فتقديم ما قدم هو الأولى والأدل على الشكر.

٧- أن البشارة في آل عمران حصلت وهو قائم يصلي في المحراب، في حين لم يذكر ذلك في مريم، بل علمنا من فحوى الكلام أن البشارة كانت وهو في المحراب بدليل قوله. «فخرج على قومه من المحراب» ولا يقتضى كونه في

(١) تفسير القرآن العظيم ١١٢/٣، وانظر فتح القدير ٣١١/٣.

(٢) انظر لسان العرب (غدا) ٣٥٢/١٩.

(٣) انظر روح المعاني ١٥٢/٣، تفسير البيضاوي ٧٣.

(٤) لسان العرب (عشا) ٢٨٩/١٩، روح المعاني ١٥٢/٣، تفسير البيضاوي ٧٣.

المحراب أنه كان يصلى فيه، فذكر في آل عمران الحالة الأكمل التى كان عليها سيدنا زكريا وهو المناسب لعظم البشارة وكمالها.

٨- أن البكرة والعشى نكرتان فى مريم: «أَنْ سَبَحُوا بِكْرَةَ وَعَشِيًّا» معرفتان فى آل عمران: «بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» ويذكر المفسرون أن (أل) فى «بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» تفيد العموم، جاء فى (البحر المحيط): "والظاهر فى «بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» أن الألف واللام فيهما للعموم ولا يراد عشى تلك الثلاثة الأيام ولا قت الإبكار فيها"^(١). ونظير ذلك من الظروف كثير مما دخلت عليه (أل) فى الاستعمال القرآنى، وذلك نحو قوله تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» [غافر: ٥٥]، وقوله: «إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» [ص: ١٨]، وقوله: «فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عَذَّبْنَاكَ رَبُّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَأْ يَسْأَمُونَ» [فصلت: ٣٨].

ونحوها كثير مما يدل على العموم والاستمرار.

وذلك يدل على تطاول مدة الذكر والتسبيح وهو مناسب لعظم البشارة، والله أعلم.

ومن اختلاف المفردة فى الوطنيين المتشابهين قوله تعالى: «وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْنِنَا لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» [البقرة: ١٢٥]، وقوله: «وَوَهَّجْنَا بَيْنَهُمَا لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» [الحج: ٢٦] فقال فى سورة البقرة (والعاكفين) وقال فى سورة الحج (والقائمين)

(١) البحر المحيط ٤٥٣/٢، وانظر روح المعاني ١٥٢/٣.

والعاكفون هم أهل البلد الحرام المقيمون، وقيل هم المجاورون له من الغرباء وهم الذين عكفوا عنده، أى أقاموا لا يبرحون، وقيل هم المعتكفون فيه^(١).

والقائمون هم المصلون، كما يقول المفسرون، فعلى هذا يكون القائمون هم الركع السجود، إلا أنه ذكر أهم أركان الصلاة وهى القيام والركوع والسجود، جاء فى (البحر المحيط): "والقائمون هم المصلون ذكر من أركانها أعظمها وهو القيام والركوع والسجود"^(٢).

وجاء فى (روح المعانى): "ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء التطهير أو التبرئة على ما قيل"^(٣).

والذى يظهر لى، والله أعلم، أن القيام لا يختص بالقيام فى الصلاة، وإنما هو يشمل القيام بأمر الدين عموماً والاستمسك به والمحافظة عليه.

فالقائمون هم المستمسكون بدين الله الثابتون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

جاء فى (لسان العرب): "معنى القيام العزم... ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أى لما عزم، وقوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ

(١) انظر البحر المحيط ٣٨٢/١، الكشاف ٢٣٧/١، روح المعانى ٣٨١/١، تفسير ابن كثير

١٧٠/١، فتح القدير ١٢١/١.

(٢) البحر المحيط ٣٦٤/٦، وانظر فتح القدير ٤٣٤/٣.

(٣) روح المعانى ١٤٣/١٧.

والأرض» أى عزموا فقالوا... والقائم بالدين المستمسك به الثابت عليه... وعليه قوله تعالى: «من أهل الكتاب أمة قائمة» أى مواظبة على الدين ثابتة^(١).

"وكذلك فلان قائم بكذا إذا كان حافظاً له متمسكاً به"^(٢)، أما سبب ذكر (العاكفين) فى سورة البقرة، و (القائمين) فى سورة الحج، فذلك أمر يقتضيه السياق. إن معنى (العكوف) الإقامة ولزوم المكان، جاء فى (لسان العرب): "عكف

على الشيء: أقبل عليه مواظباً لا يصرف وجهه عنه، وقيل أقام، ومنه قوله تعالى: «يعكفون على أصنام لهم» أى يقيمون، ومنه قوله تعالى: «ظلت عليه عاكفاً» أى مقيماً... ويعكف عكفاً وعكوفاً لزِم المكان، والعكوف الإقامة فى المسجد قال الله تعالى: «وأنتم عاكفون فى المساجد»، قال المفسرون وغيرهم من أهل اللغة: عاكفون: مقيمون فى المساجد لا يخرجون منها إلا لحاجة الإنسان يصلى فيه ويقرأ القرآن، ويقال لمن لازم المسجد وأقام على العبادة فيه عاكف ومعتكف^(٣).

وقد ذكرنا أن العاكفين هم أهل البلد الحرام المقيمون، وقيل: هم المجاورون له من الغرباء، وقد جاءت الآية فى سياق ذكر أهل البلد الحرام وسكانه، قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» [البقرة: ١٢٦].

وذكر ذرية إبراهيم وإسماعيل، فقال: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ

(١) لسان العرب (قوم) ٣٩٨/١٥-٤٠٣.

(٢) لسان العرب (قوم) ٤٠٣/١٥.

(٣) لسان العرب (عكف) ١٦١/١١.

فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

وسكان البلد الحرام هم من ذرية إبراهيم وإسماعيل، ومن هؤلاء السكان
المقيمين في البلد الحرام بعث النبي الأمين الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل فناسب
ذلك ذكر العاكفين وهم أهل البلد الحرام المقيمون أو المجاورون وعموم مَنْ لزم
المسجد الحرام.

أما في آية الحج، فقد ذكر (القائمين) ولم يذكر العاكفين، ذلك أنه قال قبل هذه
الآية: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]،
فجعل العاكف فيه وغيره سواء فليس من المناسب أن يفرد العاكفين، فقال:
(وَالْقَائِمِينَ) والقائمون قد يكونون من العاكفين وغيرهم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر بعدها فريضة الحج والحجاج الذين
يأتونه من كل فج عميق ولم يذكر أهل البلد الحرام وسكانه، فقال: ﴿وَأَنْتَ فِي النَّاسِ
بِالْحَجِّ يَتَوَكَّلُ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ
وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا
وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾
[الحج: ٢٧-٢٩].

ومن هؤلاء المذكورين مَنْ سيعود إلى أهلهم بعد قضاء فريضة الحج، فلا
يناسب ذلك ذكر العكوف والإقامة وإنما يناسبه القيام، والقيام من معانيه القيام بأمر
الدين والاستمسك به، كما ذكرنا ومن ذلك القيام بالصلاة وبمناسك الحج وغيرها من
الطاعات فناسب ذلك ذكر العاكفين في البقرة والقائمين في سورة الحج، والله أعلم.

المراجع

- أساس البلاغة لجار الله الزمخشري - مطابع الشعب، ١٩٦٠.
- أنوار التنزيل - القاضي البيضاوي - المطبعة العثمانية، ١٣٠٥هـ.
- البحر المحيط لأبي حيان، ط ١ سنة ١٣٢٨هـ - مطبعة السعادة بمصر.
- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط ١/١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية.
- البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان - محمد بن حمزة الكرماني، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حققها ناصر بن سليمان العمر، طبع بالآلة الكاتبة.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، القاهرة، ١٣٨٣هـ.
- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت تصوير الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر، سنة ١٣٠٦هـ.
- التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٩م.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، طبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- الجملة العربية تأليفها وأقسامها، د. فاضل صالح السامرائي، مخطوط.
- الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية.

- درة التنزيل وقرّة التأويل للخطيب الإسكافي، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط١/١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي، إدارة الطباعة المنيرة، دار إحياء التراث العربي.
- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهرى، دار إحياء الكتب العربية.
- شرح الشافية لرضى الدين الاستريادى، تحقيق: محمد محبى الدين وجماعة، مطبعة حجازى، القاهرة.
- شرح الكافية لرضى الدين الاستريادى، مطبعة الشركة الصحافية العثمانية، ١٣١٠هـ.
- شرح المفصل لابن يعيش، طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية.
- صحيح مسلم، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده - مصر.
- فتح القدير لمحمد بن على الشوكانى ط١، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، سنة ١٣٤٩هـ.
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادى، ط٥، شركة فن الطباعة، مصر.
- الكشف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.
- لسان العرب لابن منظور مصور على طبعة بولاق.
- لمسات فنية في نصوص التنزيل، د.فاضل صالح السامرائى، مخطوطة.
- المحتسب فى تبیین وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جنى، تحقيق: على النجدى ناصف والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى - القاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- المصباح المنير للفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ط ١، دار الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، مطابع دار الحكمة للطبع والنشر، الموصل، ط ١.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الثقافة العربية للطباعة.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، طهران.
- ملاك التأويل، لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق: الدكتور محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، مطبعة مصطفى محمد بمصر.
- همع الهوامع للسيوطي، ط ١، سنة ١٣٢٧هـ، مطبعة السعادة بمصر.

المحتوى

م	الموضوع	الصفحة
١.	المقدمة.	٣
٢.	الذكر والحذف.	٩
٣.	الإبدال.	٣٦
٤.	فعل وأفعل بمعنى.	٥٨
٥.	المبنى للمجهول.	٧٢
٦.	الوصف.	٨٠
٧.	الإفراد والتثنية والجمع.	٨٨
٨.	الحركة غير الإعرابية.	١٠٢
٩.	تعاور المفردات.	١٠٩
١٠.	المراجع.	١٢٥
١١.	المحتوى.	١٢٨



بَلَاغَةُ الْكَلِمَةِ فِي التَّبَعِيرِ الْقُرْآنِيِّ

هذا الكتاب ...

يبحث في المفردة في القرآن الكريم ، والمقصود
بـ (المفردة) هو الكلمة الواحدة - كما هو معلوم - .

إن موضوع المفردة في القرآن موضوع واسع

متشعب الأطراف متعدد المناحي ، غير أنني أثرت أن أبحث باختصار أموراً أراها ذات
أهمية خاصة فيما أحسب وإن كان التعبير القرآني كله مهما .

وهذه الأهمية تعود إلى أكثر من سبب :

منها أن قسماً مما بحثته في هذا الكتاب لم أجد المعنيين بدراسة بلاغة القرآن ،
والمعنيين بدراسة التشابه قد أشاروا إليه فيما وقع بين يدي من المصادر ، وإن كان
لا يبعد أن يكون مطروفاً في الأسفار التي لم يسعفنا الحظ في الوصول إليها وما
أكثرها !

وذلك نحو كثير من أحوال الذكر والحذف في المفردة نحو (تنزل) و (تنزل)
(و توفاهم) و (تتوفاهم) و (نبغ) و (نبغى) وغيرها وذلك كقوله تعالى :
(تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) وقوله : (تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا) ، وقوله : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)
وقوله : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) وقوله : (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ)
وقوله : (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي) .